حسن إمامي

رواية

شجرات وخرائط

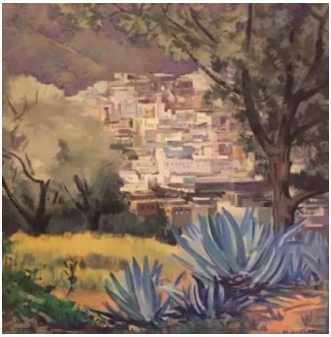

رواية

شجرات و خرائط

❖ تأليف : حسن إمامي

❖ الطبعة الثانية : أكتوبر 2016

❖ جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

❖ الإيداع القانوني:

❖ ردمك:

مطبعة وراقة بلال ش.م.م
IMPRIMERIE PAPETERIE BILAL
S.A.R.L

BILAL
IMPRIMERIE PAPETERIE

N°100 Av. Sidi slimane Rue Al Madina Al mounawara
Hay Al Amal, Narjiss FES
Tél/Fax: 05 35 61 86 03 - GSM: 06 61 68 70 55
Imp.bilal@gmail.com - www.imp-bilal.com

الإهداء

إلى روح فتاة سكنت الحكاية،
حلمت بوردة و أشعة شمس،
فكانت هذه الرواية

-★★

- ((بين بني هاشم و بني أمية تاريخ ممتد في الصحراء كما في الحياة والتاريخ. وكما سيعرف تاريخ الإنسانية انطلاق فجر جديد لديانة سماوية أصبحت عالمية بحكم كونية مشروعها الذي يمتد هو كذلك في الفكر البشري و الوجدان الإنساني، فإن ارتباط جدل الصراع بين الطائفتين، الأموية و الهاشمية، هو ارتباط التنافس على تسيير المجال و تنظيم تجارته ووظيفته.

سنحصر دائرة الرؤية لكي نتحدث عن شبه الجزيرة العربية و عن منطقة الحجاز و عن مكة ودائرتها أولا، قبل أن نتحدث عن اتساع الدائرة مع اتساع النفوذ السياسي جغرافيا إن داخل شبه الجزيرة أو خارجها كما سيأتي مع الأحداث والشخصيات.))

كانت هذه مداخلة الدكتور فحص الخالدي و هو يتحدث عن مشروعه الفكري والتاريخي الذي ابتدأ به السنة الجامعية الجديدة(2015/2014) مع طلبته و مع الباحثين في تاريخ الجدل المتفاعل في الزمان و المكان. رغم أن اختياره لهذا المحور و هذا التجريب قد عرف لغطا و صخبا و اعتراضا و سخطا، إلا أنه كان مصمما على نهجه و اختباره. و قد عمِلتْ مؤشرات الحضور الطلابي لمحاضراته و متابعته في منشوراته و دوريات مجلته التاريخية (مدائن الحياة) على دعم ثقة إدارة الكلية و الجامعة و موافقة كبار الأساتذة الجامعيين على توأمة الاشتغال داخل مؤسساتهم بالأردن كما الكويت و ليبيا...

- ((تعلمنا نظرة بعين واحدة، حجبت عنّا زوايا في الرؤية و تعرف الحقيقة. طبعا هذه عادة الأنظمة في كتابة تاريخها و محو ما سبقها وإخضاع قارئها وَ رعيتها)).

حينما انتهى من تلفظ هذه العبارة اهتزت جنبات المدرج بالكلية بشعارات طلابية ألهبت وأشعلت الحماس في أعين الطلبة الجدد الذين سيكتشفون و يكتشفون عالما ساحرا جديدا كله حيوية وأفكارا جديدة.

((علينا أن نتعلم من سيرة الكبار، أن نمزج بين خيال فضولنا و النقش في تربة التاريخ الذي نريد معرفته. أنصحكم بقراءة درس تاريخ القرون الوسطى عند المؤرخ والروائي (أمبرتو إيكو). لن أخفيكم سرا إذا أكدت لكم علاقة الأدب بالتاريخ و الدراسات التاريخية. فالأدب هو قاع المحيط الذي يحتوي أسرار السفن وكنوزها. حتى إذا همّ قراصنةٌ أو غزاةٌ تدميرٍ أو حراسُ عقولٍ على اكتشاف ثروة أو نهبها أو أخذها، لجأ الأدباء إلى أدبهم لدفن سرّهم و كنوزهم و تشكيل الحقيقة داخل محارات مغلقة. و لا أخفيكم سرا، فأقول: حتى الأدباء، فيهم الملائكة وفيهم الشياطين.

سأحرّركم من المرجعيات لكي نتكلم صراحة بعقولنا و أقواس استفهامنا حتى نخترق القلاع المغلقة للعقل و لدهاليز التاريخ.

مرحبا بكم في عامكم المنشطر بين 2014 و 2015.)).

-★★

يجلس على مكتبه الخشبي العريض. يقسّم نظراته بين رفوف الكتب المطلة عليه من فوق إطار نظارتيه و بين الأوراق البيضاء التي بقيت عليها آثار مبراة قلم الرصاص الذي قام للتو ببَرْيِه. يبتسم من تحت ظل شاربيه اللذين اصفرّا من أثر سجائره الحارقة التي يشعل بها غابة أفكاره وشجرة رئتيه. و بين الخياشيم يزأر الحرف و يشتكي من تقليبات تسجيله للمواضيع على سطح صحفه. تشتكي الممحاة كبيرة الحجم التي يضعها بجانب قلم الرصاص. يحاورهما هما الاثنين:

ـ أنتما أداة التاريخ لا محالة. و أنتما جنودي و رفقتي في كتابته.

داخل منزل سكنى عائلته الصغيرة، المشكّلة من زوجته (شادية) وابنته (رانيا)، اختار غرفته ومكتبه و خلوته المطلّةَ على الحديقة الخلفية للفيلا، معانقة بنافذتها الكبيرة لشجرة البونسيانا التي أوصى صديقه المهندس الزراعي لكي يحضرها له خصيصا ويسهر على نجاح نموها وتأقلمها مع ساحة الحديقة الخلفية.

نبّهه عمر التلمساني، صديقه المهندس، من تأثيرها على محيطها وطبيعتها العدوانية رغم قدرتها على التأقلم الخارقة. مدح له ظلها الكثيف، لكنه في الآن حذّره من عدم سماحها لنمو أنواع أخرى تحت هذا الظل.

أعجبه التحذير و سحره. لقد وجدتها. هكذا كانت صرخته و هو يسمع بتأنّ لصديقه المهندس: نعم. لقد وجدتها. هي تفاحتي الآنية. تفاحة التاريخ الذي سقطت منه بوصلته فلم يعد له سير أمامي. فرطوس يأتي على الأخضر و اليابس. (البونسيانا) وفية لمنطق

التاريخ البشري. ستكون مطلة على غرفة مكتبي و منها أطل على قانون التاريخ كما الطبيعة. كلانا سيكتب تاريخا جديدا بين القوة و ظلها، الحقيقة وكواليسها.

يبتسم المهندس عمر و هو يقرع مع صديقه الجامعي فحص الخالدي كأس الويسكي الممزوج بمثلجات تطفئ لهيب كحوله الحارق. يعجب لتداخل حقولها بهذا الشكل الغرائبي. يصيخ السمع لحديث الطبيعة مثل التاريخ. كلاهما يتبادلان بشكل خفي هذا التأثير و التأثر. يغلفانه بمنطق الحياة المعاصرة و بنجاحها المهني و بصداقتهما التي تطورت لأزيد من خمسة عشر سنة.

بطرف عينه اليسرى و بلمحة خاطفة يلتقط إطلالة شجرة البونسيانا على غرفته. يحيي ألوانها الزاهية. يشعر بحدسه هو الآخر أنها تحييه وتشكره على جعلها سفيرة آتية من وطنها الأصلي مدغشقر لكي تؤثث فضاء حديقته. يحاورها فجأة:

ـ لابد لي من حضورك و إلهامك. و لا بد لي من أدب الخيال و خيال الأدب بحضرتك. ستساعديني على الغوص في منهج تاريخي جديد وكتابة جديدة. أية تربة ستحفرين فيها؟ وأية عناصر عضوية ستتغذين بها؟ أنبتي زهرتك خلودا وَلمعانا و لي أن أنبت بنات أفكاري، أن أهديها لرانيتي العزيزة و أجعلها تختار لون غلاف الكتاب الجديد.

طوبى لك أيها التاريخ بهذا الصمت الذي يريحك من الزوابع. و ويل لي أنا بهذه العواصف التي تلحفني و تحرق صفحة وجهي.

-★★

للمرة الألف يستغرب من كنزه المعرفي الذي ينام بجواره و يسكن قلبه كما يتقاسم أنفاسه ورانيته، حبيبته الغالية التي يخلق بها نار الغيرة ويوقد بها حطب الاشتهاء. تلك لعبته التي يسعَد بها مع ابنته وزوجته.

قد يسمع الاحتجاج بدرجات متفاوتة، فيطلب المزيد:

ـ حبيبتي شادية، يا عيني فؤادي. تعلمين أنني أحببتك فتحوّل فضاء سمري الليلي إلى سماك وسباحتي أصبحت نهر عينيك العسليتين.

ـ و أنت حوّلت نهر سباحتك لابنتك رانية. أصبح اليوميّ بينكما حوارا و خروجا وعناقا أبويا أهملتما فيه شجرة حياتكما.

ـ رانيا !... تعالي يا حلوتي الغالية. هذه ماما تشتكي منا نحن الاثنين.

ـ سأقطفها حلوة عسلية كما العادة. لا تخَفْ بابا. هي حلوتي و نور قلبي.

تغطس شادية في مجلتها النسائية الجديدة. تتصفّح العناوين التي ستثيرها، و تنتظر من الطرفين مزيدا من أدائهما. تسترخي فوق أريكتها المفضلة في الجلوس، الناعمة بثوبها الوبري ولونها الفستقي الشفاف. المزهرية تضمنّت هذا المساء ثلاث وردات كما المعتاد لها. انتقتها الخادمة من السوق المركزي بِعِيدَان قويمة خضراء. بين ألوان تحت الطلب، كان الخزامي والأحمر القاني و الأصفر الشفيف، ما يؤثث البصر الذي يراقص فضاء جلسة الصالون الرئيسي المقسَّم لثلاثة مرافق في الجلوس.

في الزاوية اليسرى من الدخول من باب الفيلا الداخلي، بعد المرور خطوات عبر ووسط الحديقة، تفرّقت جلسة الثلاثة في مشهد مألوف لهم. شادية في أريكتها وشايها الإنجليزي المفضل من أجل الاسترخاء. رانيا في مسافة و قد فضّلت جلسة الفوتوي البني بالقرب

من الموقد العصري الذي يشتعل أنوارا. أما السيد فحص الخالدي، فقد استوى في جلسة قريبة من النافذة. اتخذ لاشتغاله كتابا في التاريخ، بدأه مؤخرا في القراءة و الاطلاع. هذه المرة، لم تكن شجرة البونسيانا هي المطلة عليه من إطار النافذة. كانت شجرة اللوز هي الواقفة بجذعها وفروعها، و الموحية بضرورة التهيؤ لفصل خريف و شتاء قبل أن تعد أيا كان بزهر و ثمر جديدين.

يتذكر صديقه أستاذ اللغة الفرنسية و آدابها السيد علي الزين، والذي يشتغل على ترجمة قصائد الشاعر محمود درويش إلى اللغة الفرنسية. يحار من أوصاف الشعر التي تخترق الوجدان فتحل حقيقة بدل حقيقة. قد تتعسف على الواقع فتوقعه في معركة الاستسلام لصورتها الساحرة. كيف يلجأ الشاعر إلى البلاغة بدل الموسوعة المتخصصة في عالم الزهور والأشجار. وكيف يرتمي عشقا كذات داخل اللغة. وكيف يكون هو الصدى و اللوز ضحكة مائية شفيفة نبتت على أغصان من خفر الندى...

تطربه هذه الصور بقدر ما تطربه رائحة الكأس المعتقة و المتحللة بين نار باردة وثلج صاخب. كان تعليق فحص الخالدي هذا حول قصيدة درويش، مدخل صديقه المترجم ومُعْتَمَدَه في بناء إنجازه باللغة الفرنسية:

Pour te décrire, o fleurs d'amandes

Aucune encyclopédie ne me sera en aide

Je serais dans un filet rhétorique

Blessant le sens en le vantant

Comme un masculin devant son féminin,

Se professant

Comment s'irradiera t il dans ma langue ?

Et comment le fera t il tant que je suis son écho ?

Cette fleur d'amandes florissante

Transparente comme un sourire dans l'eau

Sur une branche, s'épanouit de rosée

Léger, léger, comme une phrase musicale blanche.

(لوصف زهر اللوز، لا موسوعةُ الأزهار تسعفني،
ولا القاموسُ يسعفني..
سيخطفني الكلام إلى أحابيل البلاغةِ ،
والبلاغَةُ تجرح المعنى وتمدح جُرْحَهُ،
كمذكِّرٍ يُمْلي على الأُنثى مشاعرها
فكيف يشعُّ زهر اللوز في لغتي أنا
وأنا الصدى؟
وَهُوَ الشفيفُ كضِحكة مائية نبتت
على الأغصان من خَفَر الندى...
وَهُوَ الخفيفُ كجملةٍ بيضاءَ موسيقيّةٍ) ...
ذات استضافة في بدايات شهر يوليوز جمعتها بفيلا السيد فحص الخالدي.

يسود الصمت لبضع دقائق، فينغمس كلّ واحد في استراق المدة لمهامّه و قراءاته. يخترق هذا الصمت كل مرة فاصل تذكير أو معلومة أو خبر طفا من فوق سطح الذاكرة. فرصة

لتجميع مطالب الحياة العائلية اليومية و برامج أفرادها و اهتماماتها أو أنشطتها الشخصية. قد تمرّ بسرعة أوامر متبادلة في التزامات أو وعود معطية، فيتم التنبيه الخاطف إلى تأكيدها أو الشكر على استحضارها.

اختارت شادية لجلسة الصالون الرئيسية أثاثا تقليديا مغربيا جعلت خشبه منقوشا ومزخرفا في لون بني داكن. كان السقف كذلك يأخذ حلة زخرفة الطاولة ومرفقاتها الستة الموزعة بين أركان الجلسة المغربية بامتياز. من بعيد في جلستها، تسترق النظر للوحة الخنجر المشكلّة لديكور الحائط. تفتحص مدى استقامة تعليقها و مدى تناسق الألوان وحفاظها على نضارتها في كل صغيرة و كبيرة.

ـ هل من جديد شادية؟

ـ مثلا؟

ـ أراك أمعنت النظر في الصالون أو اللوحة.

ـ لا تخف على لوحتك. اشتقت لفراش وبَرِيّ تقليدي بالأصفر والأزرق. (موبّرا) تقليدية لم يعد يضاهيها في هذا الجديد لا في جودتها و لا في أصالتها شيء.

ـ لا تنسيْ أن الديكور سيختلّ في منظره عموما... ألا توافقينني الرأي يا رانيا؟

ـ طبعا ابنتك لن تخالفك رأيا. سأكون أنا المخالفة.

ـ بالعكس ماما. رأيك صواب. أنا سأطلب تغيير الفيلا، حتى نقترب من الأوفشورين بمركب تيكنوبوليس اللعين الذي أصبح أخطبوطا في العمل و في مسافة الوصول إليه. المشكل أنه محاط بمجال طبيعة وغابة، بعيد عن الخلق كأننا كائنات فضائية غريبة نشتغل في خلية فوق القمر أو المريخ.

ـ ههه... قريبا يا بنيتي ستلتحقين ببيت زوجيتك و تنسيْ ماما المسكينة في هذه الفيلا الموحشة بدونك.

بقدر الابتسامة و فرح الكلام بقدر الحنين و الاشتياق المختلط بين ما ستعانقه و ما ستفتقده. تقوم رانيا من جلستها في لباسها الوردي الحريري و بابوشها المنفوش والمزخرف بعيني أرنبة جاحظتين. تمرر ذراعيها بين كتفي حبيبتها و صدرها:

ـ ماما حبيبتي، إذا أردتني ان أبقى معك على طول، فأنا لا أمانع. ما رأيك؟

ـ كلّ و قسمته حبيبتي. سأشتاق إليك كل لحظة. لا أتصوّر بنتي بعيدة عنّي و لو بمترين. البابا مشغول بكتبه و أنا أشعر بملل ورتابة.

ـ ما رأيك بابا ؟

ـ حبيبتي رانيا. سنسافر الشهر المقبل أنا و ماما الغالية إلى القاهرة، وستنسى كل ملل إن شاء الله.

ـ و لم تفكّرا في ابنتكما الحبيبة في عزمها على السفر معكما؟

ـ تعلمين أنه عمل. ندوة تاريخية و الحجز لشخصين في الدعوة. إنما أعدك أنه بمتم شهر يوليوز المقبل سنحضّر لسفر ثلاثي مشترك. لِمَ لا، رباعي إذا أمكن.

ـ بابا ! لا أحب سياستك في الكلام و لا في التاريخ. اترك لي بابا بدون كلام سياسة.

تبتسم شادية منتصرة لانتزاعها اختلافا متدللا وغنجا بين العزيزين على قلبها: زوجها وابنتها، وترتمي في صفحة مقال من مجلتها يتناول موضوع أنواع العطور و العلاج النفسي عند المرأة.

-★★

يستغرب السيد فحص الخالدي لهذه الوثيقة الورقية الملفوفة الجديدة والموضوعة فوق مكتبه. طلب مستعجل و غريب من شادية سليمان. هذا الاسم الذي يحمل بذور تاريخ مشرقي، يحتاج إلى سقاية تاريخية. يوم تزوّجا لم تطرح مسألة البحث عن شجرة انتساب. يتساءل حول سرّ هذا العطش الجديد الذي أصبح يظمئ الجل من الذين يحيطون به أو من طرف الباحثين و الدارسين. يستنتج كل مرة و بنسبية حذرة هذا التنامي فيبحث له عن تفسير، سواء في مناقشاته أو محاضراته.

يسائل جيله الذي عاش أوج مراحله الثقافية التحررية:

ـ لماذا بحثنا نحن عن انفصال، و ها هم أو ها نحن الآن نبحث عن اتصال؟

حتى شادية لم تنجُ من داء البحث. أ هو داء أم دواء؟

بالنسبة للأستاذ فحص الخالدي، فقد كان لا هذا و لا ذاك. كان محنة و شقاوة سؤال في التاريخ. استغرب معه لجهله المركب في الموضوع:

ـ أعلم انتماءكم لشجرة أنساب إدريسية عموما. لم نفصّل يوما في الموضوع، و لم نحتجْ إلى ذلك يوما. لكن هذه الشجرة. أووف ما أغربها. كأنها شجرة المعرفة المحرمة التي نُهِيَ آدم وحواء عن الاقتراب منها. قولي لي: ماذا تريدين منها؟ أوَ تعلمين لقد مزّقتْ صفحات تاريخ كتبتها، ودعتني لكتابة جديدة. أنا أعلم أنتي تكفيني شاديتي. فما حاجتي إلى تاريخ يشطر الذاكرة؟

ـ تلك مهمتك و شغلك. كم من الشجرات و من القبائل و العشائر شرّحتها بحثا وتفصيلا. إنما لا تعبث بشجرتي أرجوك. اهتم و اعتنِ بها عنايتك بالبونسيانا وبشجرة اللوز الجميلة. يعجبني ما تصفني به وتجعلني معه في بهاء زهرات اللوز. حبّبت لي قصائد درويش من

خلالها حتى أصبحت مدمنة عليها سقاية لفؤادي. آه منك و من تعب رجائك. لماذا تكون متمنعا في تلبية طلبي و منتظرا دائما أن أكون أنا المبادرة حتى في الفراش؟

ـ حبيبتي. ستكونين أنت الشمس و أنا القمر. ما رأيك؟ أنت الطاقة الحرارية المشعة والتي تبعث الدفء و أنا القمر الذي ينبعث ضياء بنور أشعتك و يستدير في مدارك. حركتي من حركتك، و ضيائي من ضيائك. لن أعلو على مقامك في العشق والاشتياق. أنت جاذبيتي التي تراقصني يوميا.

ـ حيّرتني. لا أعلم إن كنت تزوجت رجل تاريخ أم شاعرا مجنونا ؟ لكن جنونك... أتعلمْ؟ جميل جدا. أحبه فيك دائما.

ـ الحمد لله.

-★★

اختار ليلته لكي يتفرغ لبحثه في الموضوع. توازنٌ ألِفه الإثنان. يوم تزوجته شادية كان عربون العهد بينهما كتابا أهداه لها:

ـ هذه بليتي حبيبتي. عليك أن تقبليها شريكة لك مع زوجك الذي اخترتِه بجنونه العاشق.

مرت خمس و عشرون سنة الآن على هذا الزواج. قرع قلمه الباركر على استدارة الكأس المستديرة. أمامه صورة زواجهما الأولى. ابتسامتان عريضتان بانت معهما أسنانها منضدة لا كسس فيها و لا ثعل. كان شاربه يغطي تعبيره هو. كم لامته على هذا الإخفاء، و كم توعّدت ذلك الشارب بالإقصاء. كل مرة يوخزها كإبر أو شوك بري موحش. الآن، مرت السنون وألفت معاركهما هذا الحضور والتعايش.

تسلّل من فراش النوم بعد معاشرة حميمية اشتاقا إليها منذ أيام. انشغالات الأسابيع الماضية حالت دون ذلك. كما حالت دون الشروع في طلبها و تنقيبها المرغوب. الآن، وبعد أن استفاد من قيلولة لها بعد الزوال، عوّض بها تعب الليالي السالفة، ها هو يختلي في جلسة سمر داخل غرفة مكتبه و مع وثيقة زوجته شادية. تريد منه أن يفتح طريقا بين جذور الشجرة توثيقا زمنيا و حدثيا يزرع الحياة في فروعها وفي وجدانها الذي بدأ يملّ من رتابة الحياة و الشعور بالقنوط من غياب الجديد.

كان بحثه الجامعي يوم كان طالبا، هذا الموضوع في الاشتغال حول صدر الإسلام وامتدادات التحالفات القبلية داخله و تأثيرها على المواقف السياسية المتخذة داخل الدولة الإسلامية. لكن نيله لديبلوم الدراسات المعمقة في بداية الثمانينيات من القرن العشرين، جعله يشتغل على التاريخ الحديث و المعاصر. الآن، ها هو العود، والعود ميمون و ليس بالأبدي كما أثاره نيتشه، يريد أن يجعلها رياضة مع الذاكرة و حنينا مع أفكار

الشباب و موجة التحرر التي انطلقت بالنبش في التراث و تقويمه و محاكمته. كم آخذ نفسه بعد ذلك، على تجنيه على هذا التراث في محاكمته بقانون عصر ليس بعصره وإسقاطات مرحلة ليست بتلك التي أنتجته. ذلك كان سبب انتقاله لحقب أخرى في الاشتغال والدراسة و التدريس الجامعي.

من أجل شادية، سيكون هذا الدخول الجامعي متقاطعا مع رغبته في النبش الجديد في مرحلة تاريخية للدولة الإسلامية و امتدادها للغرب الإسلامي، تقاطعا مع الدراسات السوسيو تاريخية التي اختارت الحفر في تاريخ القبائل المغربية وتلوناتها الثقافية بين العربية و الأمازيغية، ثقافة ولغة.

هو المدّ الجديد، لابد له أن يبصم فيه و يترك أثره و استنتاجه مرافقا للجيل الجديد الذي يتفاعل معه داخل مدرجات كلية الآداب بمدينة الرباط. و لكن، لا أحد يعلم سرّ هذا التوفيق في اختيار الاشتغال بين الذاتي و الموضوعي. كيف انه جعل محاضرته الأولى مفتتحة مع العهد الجديد للدولة و الحضارة الإسلامية، و كيف انه جعل في لائحة الانتظار فوق مكتبه طلب زوجته في البحث داخل شجرة عائلتها السليمانية.

في الرواية الشفهية التي أصبحت لازمة حوار يومي داخل فضاء جلستهما العائلية الصغيرة والكبيرة، أصبح التوجه شرقا للبحث والتنقيب عن أبناء عمومة مفترضين في إقليم جغرافي بعيد عن العاصمة الرباط. أصبح الحديث عن مدينة تلمسان الجزائرية، خصوصا بعد وفاة أم شادية المحزنة و الأليمة. وفاة جاءت بعد معاناة مع مرض السرطان و مع استئصال ثديها الأيسر و تفاقم تبعات العمليات الجراحية المتعاقبة و المتسلسلة. كان الألم متقاسما بين الأم وابنتها. وكان الاستحضار احتضارا، كأن الخلود يكون بالذاكرة و ما استحضرت، وبالقديم وما حضر.

أمي الصافية السليمانية، زوجة أبي المعطي السليماني، بنت عمه و وارثة ذكراه وذكرى العائلة الكبيرة. كانت آخر العنقود داخل أسرتها الكبيرة الممتدة بين مدن مغربية متعددة كمولاي إدريس زرهون و مكناس والخميسات و تازة و تلمسان وغيرها... هي من كان يلمّ شمل العائلة وصلات الرحم و زيارات أولاد العمومة. هي أم الأجيال الثلاثة التي عانقت حضنها وحنانها و رواياتها حول شجرة العائلة وتاريخيتها وشرفها. الآن تريد شادية أن ترد جميلا ومعروفا لأمها المتوفاة، المرحومة أمي الصافية السليمانية. هاته التي استطاعت أن تنتزع اللقب لذاتها كأنثى فتوصف بالسليمانية ضدا في رجال العائلة الذين تراخوا في مهمة الحفاظ على شجرة العائلة أو الذين تزوجوا من خارجها فذابت خصوصياتهم مع نسيج المجتمع المغربي و ربما حتى مع غيره من المجتمعات.

في جانب من غرفة مكتبه، و بعض الأحيان بعد تسجيل طلبيته، يكون (الشاريوه) معدا بقوامه و عدّته الخاصة بجلسة الشراب الذي يختاره من قبو الفيلا.

ـ هذه الليلة لي، أو هي عليّ. كلتا الحالتان أنا فيهما.

فعلا، ارتاح في يوم أحده هذا. نامت شادية و تفرّغ هو لسمره وكتابته. لحدّ الآن ما يزال يحافظ على التوازن مع انزياحاته الزمنية داخل عالم مكتبه بعيدا عن عوالم الحياة الأسرية اليومية. تكفيه الخمس ساعات للنوم يوميا. ألِفها منذ حياته الجامعية. حتى في شهر رمضان الذي تنقلب فيه موازين النوم داخل المجتمع، يبقى فحص الخالدي على عهده مع الاستيقاظ الباكر بعد انقضاء ساعات نومه الخمسة. تنام شادية في القيلولة، فيكون هو في مكتبه. تذهب للنوم في الحادية عشرة ليلا، فيتسلّل من الفراش شاردا إلى مكتبه وجنون قراءاته وبحوثه. قد يستيقظ باكرا، فيكون الكل في غرق النوم و دفء فراشه.

هذا توازنه الذي يجعله سالما من تعقيدات الحياة و خلافاتها الزوجية أو الأسرية بسبب الكتابة و القراءة.

صديقه الأستاذ الجامعي في شعبة الآداب الفرنسية، السيد علي الزين، الروائي والفنان التشكيلي و المترجم، الذي خضرم الثقافتين الفرنسية و المغربية، درسُه النقيض الذي نبّهه مبكّرا لثمن الثقافة والبحث العلمي، عانى من مشاكل الفراق والطلاق وتمزق الحياة الزوجية بسبب هذيانه مع الكتاب و اللوحة. فراق حِبّي كان مع زوجته. تشبثت بقرارها و رأت فيه مصلحة لأولادهما و لها، حتى لا يعيشا في صراعات و خصومات. جل وقته يقضيه في السفر للندوات و اللقاءات الفنية بين باريس و مدريد أو غيرهما من العواصم الفنية العالمية. و حينما يعود إلى المغرب، بالكاد يعاشرها و يجلس معها ليلة أو ليلتين حتى يغطس من جديد في بليته التي أصبحت نقمة على حياتهما الزوجية.

لم يرد السيد فحص الخالدي أن يقع في مشاكل شبيهة أو مماثلة. لكن التوفيق ضروري في مثل هذه الأمور. و هذه الليلة ربما يشفع له بحثه في ما طلبته شادية. فلا خوف على خواطر. بسحر ساحر ستكون ليلة مشتعلة بين لمعان مثلجات الكؤوس و الأفكار التي ستطفو على سطح الصفحات بعد ذلك الاشتعال الطبيعي الذي يعبّر عن أكبر فلسفة في الوجود.

بين يديه كتاب ابن أبي زرع الفاسي، (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس). أما ما هو مفقود فهو كتاب آخر لنفس المؤرخ بعنوان (زهرة البستان في أخبار الزمان، وذكر الموجود مما وقع الوجود). ها هي ثقوب التاريخ التي تخرق ثوبه فلا يستقيم لحلة أو طلة أو طلعة.

جميل هذا الكتاب القائم و المقاوم لزوابع التاريخ بين مد الحفظ و جزر المحو، هو ذاك الاهتمام الذي عرفه و انتقل به مخطوطا في نسخ توزعت بين العواصم العالمية، نذكر منها باريس الفرنسية، و ليدن الهولندية، و أبسالة السويدية، وأوكسفورد الانجليزية، وزوغرباي النمساوية، و لشبونة البرتغالية، و غيرها من المدن و مراكز الترجمة والبحث الاستشراقي والتاريخي.

رحلته ابتدأت طبعا مع تأليفه في العهد المريني في القرن الثامن الهجري نهاية سنة 786 هـ والموافق لسنة 1326 م. أما رحلة الترجمة للكتاب فبدأت سنة 1693 م تقريبا مع (بّوتي دولاكروا*petits delacroix*)، من العربية إلى الفرنسية. و هكذا انطلقت حياة و رحلة كتاب إلى يومنا هذا، إلى ليلة تصفحه من طرف السيد فحص الخالدي.

هو تشخيص أراده السيد فحص حتى يضع الكتاب في ميزان العيون التي اطلعت عليه والأقلام التي نقشت حروفه بين اللغات و أشكال التأثير التي قام بها أمانة أو تصحيفا...

بين مرحلة أبي الحسن علي بن عبدالله ابن أبي زرع و المرحلة التاريخية التي يشتغل عليها بحث السيد فحص الخالدي حوالي ستة قرون. ستشكل امتدادا لأقواس استفهام حول رحلة الرواية قبل أن تصل بين يدي المؤرخ الفاسي المشهور. و بين القرن الرابع عشر الميلادي وعصرنا الحالي سبعة قرون، أربعة منها تشكل جدلا في صياغة المخطوط... لعل البداية حفر شاق يصعب ترميمه أو ردمه من جديد...

و طبعا اهتمام السيد فحص بهذا الكتاب يأتي لندرة المخطوطات القديمة و لكون جل الباحثين يعتمدون عليه في دراساتهم لمرحلة الدولة الإدريسية عموما. هكذا سيكون قنديل الدخول لغمار التاريخ المظلمة بدروبها المجهولة.

ستكون هذه الدروب هي مسالك القرن الثامن الميلادي، الموافق للقرن الثاني الهجري. سيرسم السيد فحص الخالدي منطلقا أوليا يرتبط ببحثه. سيكون هو سنة 145 هـ تقريبا، قبل أن نصل إلى موقعة فخ أواسط الستينيات من القرن الثاني الهجري.

((يرسم العلامة ابن خلدون صورة التطور التاريخي و السياسي العربي الإسلامي، فيؤكد بمثل ما أكده الذين اشتغلوا على نظريته أمثال محمد عابد الجابري، و يجعل أسباب الصراع هي العصبية القبلية. و من هنا جاءت أطروحة العصبية و الدولة عند الدكتور الجابري.

و لعل علاقة العصبية بالدولة بارزة كثيرا في نشوء الخلافات الأولى التي أدت إلى ظهور الدولة الأموية على الأقل، و إلى ظهور الدولة العباسية كذلك. فمن شجرة أنساب وأجداد تتفرع علاقات عمومة ومصاهرة و تتوسع دوائر الامتداد والانتشار، و تأتي مسارات التباعد في المصالح و اختلاف الرؤى للطريق الجديد في سياسة أو مصلحة أو سلطة نفوذ...

لقد كان الصراع في البداية و قد تجلى بين بني أمية و بني هاشم. ورغم كون منطلقه هو سياسة تدبير الدولة الإسلامية و كيفية تخطي المشاكل التي تتراكم عبئا عليها، إلا أن التكتلات تتشكل بدم قرابة وقبيلة. فالبناء العام لشخصية العربي داخل شبه الجزيرة العربية - و هذا ينطبق على مجموعة من بنيات العلاقات القائمة على نظام قبلي في مجتمعات أخرى غير عربية كذلك - يرتبط وجدانيا وتربويا و مشاعريا ببنية القبيلة والعشيرة. كما أن البناء الاقتصادي و الأمني يحوم حولها باعتبار مكان المنشأ و مناخ النمو الفردي داخله. حتى إن زاوية النظر للأمور الحياتية و فلسفة العيش و تصور معالجة القضايا

اليومية والمجالية في السياسة و الاقتصاد و الفكر و الفقه و التدين والزواج، ارتباطا بالعادات والتقاليد، ستكون الموجّه لكل رأي فردي في اختياراته الجماعية...

هكذا سيتشكل الاختيار مع الصراع السياسي الأول المرتبط بالخلافة، و سيحسم الصراع لصالح بني أمية على حساب بني هاشم. كما سيلعب ذكاء التاريخ وقدريته دورهما في ظهور الدولة الأموية.

و مع المنهج الجدلي في تطور التاريخ، ستتشكل النواة النقيض أو أشكال نوى متعددة نقيضة، و من بينها سنجد الصراع بين بني أمية و بني هاشم بشقيهما اللذين سينتقلان إلى مواجهة فيما بعد. بين بني العباس المنحدرين من العباس بن عبدالمطلب عم الرسول صلى الله عليه و سلم، و أبناء عمومتهم من العلويين المنحدرين من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه.

و إذا لاحظتم أن التناقض لم يظهر إلا بعد الانتهاء من نقيض خارج عن الطرفين. فبعد القضاء على بني أمية و دولتهم و خلافتهم في المشرق العربي الإسلامي، سيطرح أمر الخلافة بين أهم مكوني المعارضة التي أدارت الانقلاب و الثورة على بني أمية. كان المشترك حقا سياسيا في الخلافة لآل البيت المنحدرين من بني هاشم وبالخصوص من بيت الرسول عليه السلام و أبناء عمومته.

ستنطلق الدولة العباسية سنة 132 هـ تقريبا، مُنهية عهدا قارب القرن من الزمن للأمويين. و سنستبين شكل الصراع و تأثيره على الحركية البشرية و القبلية عموما داخل الدولة الإسلامية في مرحلة أولى في العصر العباسي الأول بين 132هـ و 232هـ.

هكذا سنتناول العلاقة بين العلويين و العباسيين خلال هذه المرحلة، و ستنحصر دائرة الضوء فوق خشبة المسرح السياسي على الطرفين في بزوغ الصراع وتطوره و نتائجه كذلك.

و لا ننسَ أن كل منهج يحجب خيوط الرؤية عن زوايا أخرى متشعبة في الواقع كما في النص المنتوج. فأشكال المعارضة الأخرى التي ظهرت مناوئة للحكم الأموي و استمرت مع ظهور الحكم العباسي، كان لها دور كذلك في الصراع وأنواع تحالفاته. إنما مسارنا مرتبط بظاهرة سيكو ـ دينية، مرجعها رد فعل آل البيت ـ كما نسميهم ـ على جبروت بني أمية. كيف أخذوا الشرعية في تمثيل الآخرين سياسيا في المعارضة كما في المقاومة المسلحة. وهنا التأكيد على كون الجل من الناس يطمئن لسند تأليهي ديني للشخصية السياسية في الزعامة والقيادة. على الأقل في المرحلة التي نتحدث عنها تاريخيا.)).

كان هذا جزءا من المحاضرة الثانية التي ألقاها الأستاذ فحص الخالدي على طلبته. أحالهم خلالها على مجموعة من المراجع و طرح عليهم مجموعة من الأسئلة، قبل أن يضرب لهم لقاء في الأسبوع الموالي لليوم الذي سيصادف الخميس 14 أكتوبر 2014.

-★★

ركن سيارته بموقف السيارات أسفل الملاح القديم و بوابته البحرية. عانق أول إطلالة على النهر. جلس فحص الخالدي على ضفاف نهر أبي رقراق، و غرق بذهنه في امتداد زرقته وتموجاته الهادئة.

يحدس سر الصمت الذي يسود اللحظة كما النهر. صمت لا يثق به كمعطى طبيعة. يعتبر النهر ذاكرة للمدينة و لتاريخها و أهلها. لا يدري لماذا يحمّله مسؤولية ما يجري دائما، سواء أكان أبا رقراق أو دجلة أو الفرات أو النيل أو غيرها من الأنهار العالمية التي ارتبطت الدول بها تأسيسا و تطورا.

لكن أبا رقراق لم تُرقه الحكايات المنسوجة حوله هذه الأيام. يبتسم السيد فحص لتخيلاته ومسموعاته حولها. قضية التمساح الذي يظهر و يختفي. يتأمل تموجات النهر المائية و يأمل هو الآخر في أن يرى شيئا، تمساحا. علّه يكون السبّاق إلى رؤيته، ويعقّب على ذاته وعلى النهر:

ـ لقد تجاوزت حكايتك حكاية ثعلب الأديب محمد زفزاف، ذاك الذي يظهر و يختفي. نحن الآن أمام تمساح أو تماسيح تظهر و تختفي فلا تترك للناظر لها سوى وهم التصديق لما يروي أو التكذيب. يصبح العاقل في قفص الاتهام. إنما الجميل في الحكاية هو هذا التذكير بزمن عاشت فيه التماسيح على ضفاف و في أعماق نهرك يا أبا رقراق. حتى شروط رومانسية لتحقيق قصيدة و لحن خالدين و صوت عذب يحلّق بهما، غير متوفرة الآن. سيحتاج الشاعر عبدالرفيع الجواهري إلى بيان اطمئان من أجل أبياته الرائعة:

خجولا أطلّ وراء الجبال * و جفن الدجى حوله يسهر

و رقراق ذاك العظيم على * شاطئيه ارتمى اللحن و المزهر

و في موجه يستحم الخلود * و في غوره ترسب الأعصر.

جلسة محارب لا يريد الاستسلام. ربما اعتبرها استراحة محارب، انتقل خلالها بين مواقع عدة مجاورة لنهر أبي رقراق. انتقل، بعد جلسة ربع ساعة تقريبا، ماشيا حتى صعد الدرج المؤدي إلى الوداية. دخل بساتينها، و حيا ظلال و أطلال الدول التي صنعت تاريخها، وبحث عن مقهاها لكي يتناول بين الخلق الزائر كأس شاي في إطلالة برجية على النهر والبحر.

آخر مرة كان مجيئه إلى هذه المقهى رافقته فيه عائلته الصغيرة شادية ورانيا. يدندن مع إيقاع الطرب الأندلسي مبعدا كل دوائر تفكير جديدة محللة و مركبة أو رابطة لعلاقات استفهامية أو غيرها. هو الحنين الذي شرد به بعيدا عن الحاضر. يتذكر ذلك الاسم وتلك الابتسامة. يسأل نفسه إن كان عطر السيدة الأجنبية الجالسة بجواره مع صديقها هو سبب هذا الاستحضار أم هي هذه الموسيقى الأندلسية بموشحاتها التي غناها لرفقته الأروبية ذات مساء عابر بالقصبة. أكيد أنه نفس العطر الذي كان يعانقه سفرا عشقيا مع صديقته الفرنسية شارلوت أيام زمان. لكن الموشح يغري بالرقص هذا اليوم كذلك، رغم أن التوقيت ليس بعشي يحضّر لمساء طرب و عشق و عناق.

يراقص كلمات الموشح بذهنه. يكتفي بحركات قيّدها ظرف المكان والزمان والمقام. ودّ لو يرقص رغم أن مرحلته العمرية لا تسمح له بحماقات شبيهة. راودته حسرة تلوم ثقافةً تخندق جيله في جدية مطلوبة و تحرمه من حقه في مرح صبا يسكن دواخله و دواخل كل إنسان مهما بلغت مرحلته من عمر أو شاخ في سنّ ما:

يَا شَمْسَ العَشِيَّا أمْهِلْ لا تَغِبْ بِاللَّهِ رِفْقَا

هَيَّجْتِ مَا بِيَا حَتَّى زِدْتَنِي فِي القَلْبِ شَوْقَا

تَرَفَّقْ عَلَيَّا إِنِّي فِي المَلِيحْ قَدْ زِدْتُ عِشْقَا
فِي الوَادِي المُذَهَّبْ وَوَجْهُ المليح مِثل الثُّرَيَّا
وَالسَّاقِي مُؤَدَّبْ يَسْقِي بِالأَوَانِي البُنْدُقِيَّا

صَفِّفُوا القِطْعَا وَزِيدُوا نَغْنَمْ هَذَا العَشِيَّا
كُلُّنَا كَسُوا فِي يَدُو يَغْتَنِمْ سَاعَة هَنِيَّا
وَالمَلِيحْ قَلْبِي يُرِيدُوا يَنْشَرِحْ بَيْنَ يَدِيَّا
وَالقطِيعْ بَيْنِي وَبَيْنُوا وَالعِيدَانْ تَصْنَعْ تَوَاشِي
قَرِّبُوا حِبِّي إِلَيَّ واعْطِفُوا عَطْفَ الحَوَاشِي

حوارية عشق و طرب بحث عنها في فضاء مقهى الوداية و وجدها. على الأقل أنه نجح في هذا الكسب. أطرب و أسكر فؤاده. أنعش ذاكرته. راقص مخيلته. شارلوت ما تزال ساكنة حيوية شوقه الدفين. ما تزال الخلايا تروض وضعه مع كل تذكر وحنين. برقت عيناه ثمالة فرح، و كان كأس الشاي ينوب بحلاوة سكره و نعناعه عن كأسه الصفراء والمعتقة بصافي مستخلصات الأعشاب الساحرة التي تركها تستريح منه لبضعة أيام.
نصيحة الطبيب حذّرت من الاستمرار في تناول هذا النوع القاسي من الكحول. فكل جيد مميت، لا في تدخين السجائر و لا في شرب الكؤوس المعتقة.
يجول ببصره بين زوايا المكان. لا أحد فطن لتذكره. يبتسم تلقيا لكل نظر يصادفه ويقابله، مسجّلا بذلك براءة لعبته. يغمض عينيه في رحلة خالدة تسجل في الذاكرة ما يجب أن

يمّحي. لا أحد يترك الخلود. لا أحد يخلّد الأثر. لماذا يفنى الواحد منا في الأثر حتى يصبح خالدا؟ هكذا ساءل نفسه متفلسفا. استحضر في مرافعة العاشق الذي يموت ولعا متيما، أو المدمن الذي يسافر مع آخر جرعة قاتلة.

جرحه الوجودي الذي أخذ ينقله في خلوة متكررة في كل مناسبة متاحة. لا يريد لآخرين أن يشعروا به فيه، لذلك كانت صبحيته وتجواله هذا اليوم، ما دام العدم يختار له الرحلة الفردية في الممات.

رقصة الفناء هي. لا. يسجل الرفض للجواب. ما يزال راغبا في حياة. لمن سيترك فاتنته رانيا؟ للألم؟ لمن سيترك رفيقة دربه و روحه شادية، و قد أحبها خالصا من كل السوابق ومخلصا في كل الآتي من دروب المشاعر؟ سيفكر في طريقة للتخلص من عادة الشرب والتدخين. لكن، ليس الآن. متى؟ لم يجب نفسه في هذا المونولوغ المباغت.

يقف في إطلالة على بوابة البحر الذي يصب فيها نهر أبي رقراق. بدا له غريبا في لحظته، كتوما عن الحقائق كما عادته. نفسية فحص الخالدي كذلك اغتربت عنه في نظرتها. أبعدت الشعور الرومانسي الذي تستدعيه اللحظة. استراحت المسامع من مقامات متسارعة لأغنية أندلسية موالية، لكن ذلك الهدوء المؤقت الذي رافق وقفته هاته كمّله باشتغاله الذهني مع مشروع تدريسه الجامعي و بحثه الهوياتي المرتبط بشادية و مقاومتها لتقدم العمر و تهديداته لأنوثتها ربما. ساءل البحر البعيد: مجال رؤيتك قرصنة و مقاومة بين مدّ و جزر تاريخيين، ومجال رؤيتي بساط تاريخ طويَ و تمّ لفّه في زاوية، مطلوب مني أن أبسطه وأمدّه من جديد و أنقش زخرفته حتى تلمع و تبدو.

بقدر الجرح بقدر البلسم. هكذا كان يردّ على أصدقائه في شعبة التاريخ بكلية الآداب:

ـ إذا نظرنا إلى الواقع المعيش و الأحداث السياسية بين السلم والحرب، والصراعات القائمة اليوم، فإننا نعيش سلاما مع الموتى التاريخيين في الماضي. أما إذا اشتغلنا على التاريخ الراهن، فسنكون محور صراع داخلي بين العقل والوجدان. لا يمكن للذات أن تتخلّص من ارتباطها بقضايا عصرها فتكون موضوعية مجرّدة في تحليلها وملاحظاتها ودراساتها.

يربت أحد أصدقائه و الأستاذ بشعبة التاريخ كذلك على كتف المتحدث حكمة السيد فحص الخالدي، و يهمس له في أذنه موقّعا قدر ارتمائه في وغى التاريخ كعضو مشارك:

ـ اسمك فحص من الافتحاص، و الخالدي من الاستمرار في مسايرة تاريخ هذا الافتحاص. قدرك و قدرنا صديقي العزيز.

يبتسم لهذا البوح المتجدد، و الاعتراف المفروض على سنة الحياة والعمل والبحث. لا تسمع الجماعة المجاورة سوى ذلك الرد المألوف:

ـ و الله إن قولك لصواب مائة في المائة.

-★★

يعبر شارع محمد السادس، و بعده شارع المهدي بن بركة، في اتجاه حي سكناه. كانت شادية معزومة على حفل غذاء يضم نون النسوة. رفقتها في مدينة الرباط. بمطعم راقٍ بحي الرياض، الْتَقيْنَ للاحتفال بعيد ميلاد صديقتهن البرلمانية التي توجت سنتها بهذا الانتقال من الوظيفة العمومية إلى التمثيلية النقابية داخل الغرفة الثانية في مجلس المستشارين. وحيث إن الانتخابات تتم بكوطا التمثيلية النسائية التي تقتلع من العقلية الذكورية تلك الهيمنة الميدانية والتسييرية. يقف السيد فحص أمام الضوء الأحمر و يراقب أفكاره التي لا تنضبط لنهيه عنها في الاستحضار. يكلّم نفسه:

ـ سنحتاج إلى تحديث قسري رغما عن عقولنا و امتناعنا.

نصيب السيد فحص الخالدي كان غذاء منفردا بالفيلا، لكنه متعدد بوقت التفرغ الذي سيتيحه لجلسة ما بعد الزوال. فبعد أن أخذ دوشا و ارتدى بدلة قطنية مناسبة لتقلبات فصل الخريف الذي يكون رطبا داخل مدينة الرباط، تناول وجبته التي حضّرتها السيدة فاطمة التي تشتغل مع الأسرة لمدة وصلت إلى عشر سنوات الآن. أَلِف طعامها وذوقها وتحضيراتها، كما ألف وجودها كفرد من العائلة، رغم أنها تقضي النهار فقط و تنصرف بعد السادسة مساء في الغالب إلى حي سكناها مع عائلتها، بحي التقدم بالرباط.

يطل من باب البهو على مرمى العشب المخضرّ و الممتد بانتظام تاركا للورود و الأشجار دوائر توقيعها. رياضة بصرية تغسل الأنفاس كما البصر. يلوم المدينة التي تهدد المجال الأخضر في شوارعها، لكنه يطمئن لمسار شوارع العاصمة على الأقل التي تعرف تلك الحماية للمساحات الخضراء المتبقية.

اختار جولته عبر مدار حديقة الفيلا. مناسبة بعد الزوال لكي يتفقد الأشجار والنباتات والأزهار. وقف أمام شجرة اللوز و استدركها بتفحص للفروع والمحيط. واقفا و متأملا، ها هو يستحضر توجيهات صديقه المهندس الفلاحي الذي يعتبره أب هذه النباتات المنتشرة عبر زوايا حديقته. هي الآن في مرحلة راحة و سكون. تستجمع براعمها وتستعد لكي تنفتح في شهر يناير. يبتسم لنجاحه في الحفاظ عليها داخل طقس مدينة الرباط الرطب. تحدٍّ يُشعره بالقدرة على الصمود وبضرورة الصبر في مجموعة من الأمور الحياتية. لا ينسى الفلسفة التي يستفيدها من الطبيعة و الأشجار. تلك الأسرار التي تتحول إلى قيم ودروس. فكل نبات له شخصيته و مواصفات عيشه و نجاحه. له فترات زهوه و ازدهاره، وفترات تساقطه وذبوله. كذلك درجات الصمود التي تحتاجها شجرة اللوز داخل مناخ وبيئة جديدة. بالجانب شجرة ليمون ما تزال تحافظ على تورّقها. أما مفضّلته في الحضور فهي تلك التي يطلّ عليها من نافذة مكتبه الخلفي، شجرة البونسيانا.

يسائل الشجر في جولته مثلما يسائل أقواسه الذهنية و ما اشتغلت به و عليه هذه الأيام. رياضة جعلها بالموازاة مع رياضة المشي التي نصحه بها الطبيب، دونما حاجة إلى إجهاد كبير. ولكن، مع ضرورة إعادة النظر في طقس كوكوسه وسجائره. عجّل بذاك، ولكنه أجّل هذا. وهي مزاوجة خطرة كما نبّهه لها الطبيب كذلك. أصدر ضحكته الانفرادية التي ترجّ كتفيه و تجعل ابتسامته مُصدِرة لصوت خفيف بين الضحك والغناء. تذكر ما قرأه في جريدة هذا الصباح: (إذا تناولت طعاما صحيا ومارست الرياضة بانتظام وامتنعت عن التدخين سوف تموت وأنت بصحة جيدة.). استغرب للمفارقة الساخرة من الحياة و التي تنتقم من خداع الموت التي بدأت تدق أصواتها مع اقتحامه لمرحلة الخمسينيات من عمره.

تذكر شجرة عائلة زوجته شادية. شبّه أوراقها بأوراق الخريف. تتساقط وتتبرعم لكي تعطينا فواكه جديدة و واعدة. كأزهار وكثمار، يأتي من يقطفها أو تسّاقط لكي تنصهر مع التربة و مع عناصر حياة الطبيعة و البيئة. درس (لافوازييه) ما يزال حاضرا ومقنعا بنسبية ما: ما من شيء يضيع، و لا من شيء يخلق، الكل يتحوّل. لكنه يضحك أسى على مصير العالم في التاريخ و السياسة. يضايقه سؤال: هل طبّقوا عليه نظريته لكي يختبروها معه حينما أعدموه؟

و يفرّ من سؤال إلى آخر، لأنه لا يملك الجواب الآني أو لأنه منشغل بالثاني: هل تحتاج شادية لربيع جديد حتى تنسى اشتغالها بشجرة العائلة التي تساقطت أوراقها الكبرى؟

ـ ليت جلسة التاريخ تشكّلت من علماء مختلفين في حقول عدة قبل بداية تسجيله وقراءته.

يعود لمكتبه و اشتغاله. لقد حققت جولة الحديقة و تأملاتها مبتغاها في ذاته. على الأقل، يستطيع أن يستلهم من المفارقات التي تبادرت إلى ذهنه مجموعة من الملاحظات الجديدة حول بحثه المتعدد بين تاريخ أمة و تاريخ عائلة و تاريخ ثقافة ودين. شبحه الذي يراقص مجهوله في هذه اللحظات هو امتداد القرن الثامن الميلادي و بالخصوص منتصفه الثاني، و أواسط القرن الثاني الهجري. خطّان متوازيان يتناوبان على تسجيل خيوط الأحداث داخل نسيج الحكايات ومحاولات التدوين.

يضع خريطة العالم أمامه فوق الطاولة. يعلّق مستأنسا بمعاتبات العمل: أصبحت مهندس خرائط يا فحص. ماذا تريد أن تفتحص فيها؟ و الله لقد جعلوك اسما على مسمى.

قلم رصاص و بيكار، و بداية رسم الدوائر: منطقة الحجاز، ومنطقة النوبه المصرية، ومنطقة القيروان، ثم تلمسان، فطنجة. بعدها جعل سهما ملولبا ونازلا من الشمال حتى منطقة وليلي و جبل زرهون الذي احتضن بيعة إدريس بن عبدالله و إمارته. كانت علامة الاستفهام فوق منطقة تلمسان.

هكذا شاطح زوايا الطاولة المستديرة وسط الغرفة. لم يحتج إلى إيقاع موسيقى، كانت الخريطة هي الموزعة للحركات، و كانت دندنته الصامتة هي المرافقة. إنما هي مهمة شاقة يرسمها لنفسه. يعلم بحدسه صعوبة النفاذ إلى داخل هذه العوالم المظلمة. لا يدري، هل هي متمنيات آخر العمر، خصوصا و أن صحته بدأت تنذره بقلق زاده الطبيب إزعاجا. أجاب الغائب في الحوار في مونولوغ تحوّل إلى جهر:

ـ لا تخفْ، سأموت في صحة جيدة !

ـ رحلة ممتعة سي فحص. اتكلت على شادية فنسيتك في بداية الطريق. و متى عوّلتَ عليها في رحلات جنونك؟

يساعده الهدوء على إخماد كل سؤال أو عتاب يريد أن يؤجج به لحظات الوجود الفردي الخاص و طقسه المرتبط بالبحث. هذا الذي لم يكن عاديا، و لا جامعيا أو أكاديميا مائة في المائة. هو عربون وفاء لحبه و لشريكة عمره، يريد من خلاله أن يؤثث لها خيالها وعقلها بسحر جديد و طلب حياة مديدة في رفقته. يلاحظ هذا السحر في بريق عينيها، في مداعبته لها، في شرطه الذي وضعه قبل أن يخط السطر الأول في

تلبية طلبها: لوحة شوكولاته رفيعة مقابل كل مدينة ستبحث معه عنها خلال القرن الثامن الميلادي، الموافق للقرن الثاني الهجري. بدأت تعد كم من لوحة ستحصل عليها، و التي ستكون من نصيب رانيا في الغالب أو أحد زوار العائلة من الصغار أو الكبار، لكنها توقفت عن العدّ لهذه اللوحات إذ سرعان ما تخلت عن البحث في بداياته. كان مجموع ما غنمته ربع لوحة. ولا يمكنه أن يشتريَ لها ربع لوحة. اللهم إذا أُكملت البحث عن المنطقة الأولى من اتفاقهما، منطقة الحجاز في القرن الثاني الهجري.

ـ و من سيضمن لك النجاح أنت، في وصف المنطقة خلال هذا العهد؟ المسألة ليست سهلة. موضوعية الوصف تحتاج إلى بحث مفصل تاريخيا و معاينة مادية للحياة بين ثنايا العمران و البشر.

هكذا يدرك ذاتيا صعوبة المهمة و ارتباطها بمواقع و أماكن و مناطق و أشكال حياة. لكنها، أكيد ستكون رحلة ممتعة. فهو في كل مرة يعيد نفس العبارة الأخيرة، و يضيف لها:

ـ وهل هناك أفضل من هذه الرحلة؟

-★★

و هذه الشجرة، جزء من بستان يصعب القبض على تربته. لا يمكنها العيش، لا يمكنها أن تورق ما لم يرعاها فلاّح. و ستختلف الرعاية كما الفلاحة. أن تكون مادة لزراعة كما للرعي كما للسقاية كما للاحتلاب و للزبر، هي هذه شجرةٌ زئبقية و منفلتة من التاريخ ومن الشخوص و من الأحداث.

تطل عليك عيون هذه الأسماء المنتسبة ببنوة ذكورية، و المنحدرة من أنثى تمثل براءة الانتماء و طهارة النظر المحتشم و المتصف بغض البصر و بالعفة و بالوقار اللازم أمام المرأة، حرمة الخلق و زهرة القداسة التي سجّلها وقع تاريخ النبوة و النبي.

قد يسأل فحص الخالدي نفسه:

ـ ماذا كان سيقع لو أن النبوات كانت بيد النساء و على لسانهن؟ أية حقيقة منفلتة أو انفلتت من الوحي بجهة عملة أحادية دون أخرى؟

لعل جرح التاريخ الذي لم يكتمل كماله في رسالته فجّر و زاد في عمق و ألم جروح كثيرة عاشها الإنسان و يعيشها في الحاضر و كذلك في المستقبل.

يحاور السيد فحص الخالدي أصدقاءه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في مناسبات عدة. لكنه، و في سياق رحلته التاريخية بين دوائر اشتغال تقترب من تاريخ الحوليات ومن تاريخ الثقافات والقبائل وشجرات الأنساب، و هو في خوض غمار تجربة تربط بين الذات والموضوع و تفاعل الحياة في آن، لجأ في جلسة مقصف الأساتذة بالكلية إلى فتح نقاش متأن مع صديقه في علم النفس السيد حدو الربيعي وبحضور الأستاذ علي الزين. رفقة تمتلك سحر و طلاسم التواصل بين أفرادها. يحسبها الملتحق الجديد بحواراتها ولقاءاتها متوترة و متباعدة، لكنها تكون دائما مختبرة لهامش الشك و النقيض في كل

معلومة و كل تحليل حتى لا يمر في الذهن كمسلمة تنزلق بأفراد المجموعة إلى معطيات خاطئة في الحديث و في الحوار كذلك.

بعينيه الحركيتين و الدائمتي التفحص في المقابل لها شخصا أو صورة أو مجالا، كان السيد حدو الربيعي من بين الأسماء التي تثير زوبعة أذهان الطلبة و القارئين لبحوثه واستنتاجاته والإشكالات الفرضية التي ينطلق منها في معالجة الظواهر الثقافية المجتمعية. ولعل التقاسم والتقاطع قائم بين موضوع السيد فحص واهتمامات الدكتور الربيعي المتفردة. هكذا اخترقت رؤية السيد حدو الربيعي تحليل فحص الخالدي لموضوعه. كانت الإضافة التي سجلّها كملاحظة حول ما جرى من نقاش، مرتبطة بموضوع الشجرة وارتباط الفرد والقبيلة بها، وحول ظاهرة التسابق حول هذا التقديس الاجتماعي للانتماء. البحث عن هوية شرفية وجذور مقدسة. ولكون التفكير في مناقشات الأساتذة يأخذ طابع التجريد، فقد التصقت الملاحظات بالشجرة و الجذور والأغصان والفروع. لكن ما أثاره في تحليل رمزي عند السيد الربيعي هو ذلك الربط بين التسابق للتبرعم داخل الفروع حتى يتشرنق الفرد أو الجماعة داخل الثمرة والاحتفال بين وريقات و تلابيب الزهرة. فلابد من العطر في الاحتفال:

ـ ألا تلاحظ اهتمام الفرد منهم بالزي البهي و الأنيق. رأسماله ثقافة لباس قبل كل شيء. يعني اهتمام بالمظهر ملاحظ؟ هو ظاهرة صحية جميلة، لكنها معبرة في جل الحالات عن ذلك الارتباط بالشجرة التي أثرتما مناقشتها. ما يهمني هو سلوك الزهرة و النواة. تكامل وظيفة أكل و تآكل. ربما لن نجد في اللغة ما يعنيه التآكل المتوالد باستمرار، لكنه كمفهوم داخل الصورة المستنتجة هنا يؤدي وظيفته.

يحوّل السيد فحص الخالدي حركة يده لتناول رشفات من كأس القهوة السوداء التي يمتلئ بها الفنجان. يؤيد بانحناءة خفيفة قول صديقه الغريب في الأفكار. عيناه تتأملانه في تجدد و كأنهما تجددان الاستنتاجات. أُكيد. خصوصا و أن السيد الربيعي قد ألِف هذه النظرات من محاوريه. فأفكاره تثير من الزوابع الذهنية والزلازل الفكرية أكثر مما تساعد على توازن. و قد يمازحه السيد علي الزين بعض المرات بتعليقه:

ـ علماء النفس يحللون و يعالجون و أنت تفجّر التناقضات و المجاهيل في الناس.

ـ أنا أعيد صياغة العالم الذي يتوهّم الناس أنه سليم. ربما أساعدهم على العلاج المستقبلي. *سيكون هذا علم النفس العلاجي المستقبلي. هكذا بكل وضوح الآن. مرحلة الكي في العلاج. مرحلة الصدمة الكهربائية التي تثير الجهاز العصبي وتعيد جريان الحياة بين مسالك آنست السكون و الرضى بالحال. ربما للموت فلسفة ذكية تمارسها داخل جلباب الحياة. تنقلنا داخل لوحة تشكيلية بمواصفات استقبالها لنا، وتضحك على مشاهد تمسرحنا و تراقصنا و فزعنا...*

ـ أُكيد ستحتاج للعيش مئات السنين حتى تتابع تحليلك و علاجك الوجودي للإنسانية.

بينما كان هذا تعليق السيد علي الزين على تحليل الأستاذ حدو الربيعي، بادر السيد فحص الخالدي إلى طرح سؤال آخر:

ـ ارتباطا بالشجرة، ما هي عقدة التطور في شجرة السياسة والجينيالوجيا الثقافية المرتبطة بها بين السنة و الشيعة، بين العلويين والعباسيين، و غيرهما كثير في المقارنات؟

ـ شعّبت السؤال أكثر من اللازم سي فحص. ألمس اختمار دراسة ما في أسئلتك وتورّطنا معك في المواقف ربما قبل التحليل.

ـ عفوا سي حدو، لكن ما يشغل بالي هذه الأيام مرتبط بهذه المناقشة فعلا. التشبيه جميل و أريد منه فهم مسألة مهمة الآن: لماذا تمحور الصراع بين آل علي وشيعته مع بني عمومتهم. الذكورية المبطنة في الصراع جعلت انتصار بني العباس كامتداد للحكم النبوي. وربما الذكورية المبطنة هاته ـ و هذا ما يقلقني في الفهم له، جعلت شيعة آل علي يضخمون من معجزات علي كشخصية فوق العادة، حتى يعطوا الشرعية لامتداد الحكم المنحدر من بنت الرسول عليه السلام، من فاطمة الزهراء.

ـ الصورة واضحة سي فحص. أنت الآن من يحلل التاريخ نفسانيا. عقلية ترفض المساواة بين الذكر و الأنثى، تريد الحفاظ على معادلة الدونية وخضوع المرأة للرجل. تتمظهر وتتفرقع مع بنية جديدة و بلون جديد.

ـ ربما ابتعدنا عن الفكرة التي انطلقت منها في محاولة الفهم الأول. يعني كيف سننتقل في التحليل من هذا الغوص في الجذور لكي نفسر هذا التشرنق بين البراعم و الزهور والتآكل المزدوج الذي يتجدد و يستمر به صاحبه و ما ولد؟

مثل هذه المناقشات تبقى محفورة في الذاكرة، شاعلة فتيل البحث المتقد في الأذهان. تتقارب الآراء أو تبتعد في تناول الموضوع. و هنا، بينهم كأساتذة جامعيين، يميز السيد فحص الخالدي بين من يكون في بلواه جامعيا حقا، يستفزه السؤال و يستفزه طلب الحقيقة كفاقدٍ لخارطة طريق و سائلٍ عنها، و بين من لا يبالي فيجعل من مصبه طريقا للرقي الاجتماعي و الامتياز الحياتي و كأن شريط الوصول وهدفه تحقق في ذلك التسلق المادي اجتماعيا. شاءت الظروف أن تكون هذه الثلة مناسبة و متقاربة في ميولها وطريقة عيشها و معانقتها للبحث العلمي بشكل دؤوب. لذلك لم تجد بينهم من يجري وراء مشاريع تجارية أو فلاحية نازعا معطف الأستاذية و مرتديا بلوزة الفلاح أو المقاول...

هكذا سيكون عالم السيد فحص دائرة تواصل مصغّرة مع هؤلاء من مثل حدو الربيعي وعلي الزين و غيرهما قليل.

ستأتيه الفرصة المناسبة في بعثة علمية جامعية ستزور المناطق الشرقية في رحلة تواصل من خلال محاضرات و ندوات تهم تاريخ المنطقة الشرقية، بدعوة من جامعة محمد الأول بوجدة. وما دامت التظاهرة الثقافية و العلمية موزّعة في تواريخ قيامها، و التي ستستغرق عشرة أيام بالتمام و الكمال، و سيكون من ضيوفها أساتذة جامعيون من الجزائر و تونس وغيرها من الدول و الشعب المهتمة بتاريخ المنطقة، ارتأى فحص الخالدي أن ترافقه زوجته شادية سليمان. هكذا جعل مشروعه مزدوجا بين تاريخ حي و تاريخ ولّى. هكذا اختار لمداخلته الرئيسية في الندوة الثانية موضوعا مناسبا لبحثه. اختار القرون الثلاثة الأولى لظهور الإسلام و حركات الهجرة التي عبرت المنطقة الشرقية في الاتجاهين. و ما دامت الورقة مشروع بحث معمق أكثر، فسيكتفي فيها بتسجيل الملاحظات التي ستفتح بتساؤلاتها آفاقا للدراسة التاريخية سياسيا و اقتصاديا واجتماعيا و ثقافيا وأمنيا. تساؤلات تعكس مرآة الماضي على هذا الحاضر لشعوب المنطقة والتي تعيش ممزقة و مجترحة بهذه الحدود السياسية و الترابية دون الخوض في الشروخ السياسية و النظامية العليا القائمة اليوم.

لم يضيّع وقته كثيرا في إيجاد صيغة لجمع شمل عناصر البحث و لمّة العائلة السليمانية. فخالة شادية عمّرت في السن، و التي تسجل شهادتها لتاريخ عائلة انتقلت بين مناطق عديدة في المغرب، ما تزال حية ترزق، و بفضل الله تعالى ما تزال محافظة على سلامة حواسها وقوة ذاكرتها و قدرتها على الكلام الفصيح والمسموع.

ربما أخذت منها التجاعيد ملامح الشبه مع أم شادية، الصافية السليمانية. لكن شادية حينما رأتها، لاحظت صورة أمها. غمرتها الدموع. قبّلت عينيها و رأسها وضمّتها بحنين تشحن به عبق التاريخ في تنفسها و رائحة جسدها الشرقي. العينان عسليتان، و الشعر تحوّل إلى حمرة محافظا على خصلاته القوية. الجسد احتمى ببنية و أطراف، و الطول حافظ على سموق شجرة منحنية، تدلت أوراقها مثل شجرة سرو تقترب من أواخر خريفها. و حيث الطيور قد تهجرها لانعدام الظلال التي ستتفيأ بها. كانت شجرة حياة محتضنة لكم من حياة، واهبة السكينة وواقية من لهيب السماء و قر جوها. ها هي اليوم تشعر و كأنها منبوذة ومهجورة فعلا. هو شعورها الذي لا يمكن لمواساة أن تخفف من وطئه. كيف يمكن ذلك والعمر قد ولّى بالوهن و فقدان القوة والقدرة على العطاء. شفيعها سيكون هذا الحكي الذي يعوّض الحاضر بالماضي و بالأمجاد.

لم تخن الصورة فحص الخالدي. تحضره شجرة اللوز بحديقته حين حضور تشبيه شجرة السرو بين خريفها و ربيعها. يمازح الطبيعة التي قرأ فصولها في مقررات رسمية، و يحتجّ عليها في خداعها:

ـ أعلم أنه لكلّ خريفه و لكلّ ربيعه.

هو خريف الحاجة فاطمة الزهراء في سنّها الثاني و التسعين. تعود الخالة بالذاكرة والحكي. تستعين بعيون شادية الساحرة بجمالها الذي ورثته من الصافية، تلك المفقودة في فؤاد الحاجة فاطمة الزهراء. تملؤها الدموع المحبوسة. قد يظن الجالس معها أن ذلك الانحباس الذي يبّس الدمع جعل صاحبته عمشاء بفعل التقدم في السن، و ينسى أن الحاجة فاطمة الزهراء إنسان بمشاعره و عواطفه مثل أي إنسان، أكان طفلا أو شابا أو غير ذلك. أكان امرأة أو شابة أو صبية، استحضارا لجنس مغيب في الوصف في بعض الأحيان.

هذه الخالة، التي يفضّل فحص الخالدي مناداتها بالعمة، اتخذت الترحال و الرحيل بأكرا، بين طرق حياة و مناطق عيش مختلفة و مخالفة لقافلة العائلة السليمانية الكبرى، في رفقة زوجها الذي أنجبت منه ولدين ذكرين حينها، و الذي تنتظر منه و ينتظر منها مزيد إنجاب. وكذلك كان ما يحكيه الزمان، و في مسموع هذا اللقاء كذلك. هي أم لتسعة أولاد، أربعة ذكور وخمس إناث. أحفادها التسعة عشر فروع شجرتها الوفية والخصبة والمثمرة.

كانت الخالة قد حملتْ معها في إحدى الصناديق التي ائتمنها عليها أبوها، تلك الشجرة ملفوفة في قماش من صوف أبيض ناعم. يوم سلّمها لها، تحدث الحاج السليماني عن بطاقة ائتمان وأمان و اعتراف و ضمان. وهو الذي جرب لحدود تلك الفترة مصاعب القدر الذي لا يأتمن العيش فوق هذه الأرض. كان خوفه على ابنته و أسرتها تسليحا لها بدرع هذه الشجرة. ربما إذا انسدت الأبواب كانت الشجرة شفيعة تفتح و تيسر و تأتي بالفرج و ترد شبح الموت أو القتل و تهديداته.

"كان راضيا بقضاء الله و قدره. بكى بقلبه يوم فارقني مع زوجي وابنيّ. أوصاني بالشجرة وأكد عليّ في الحفاظ عليها. لم أدرك أهمية ذلك إلا حينما رأيتكم تأتون لطلبها من جديد. رغم أن هذا الطلب خلق مشاكل حولها و رفضا في تسليمها. لقد تأخرتم كثيرا في المجيء. حينما كان المرحوم الحاج عياط يسافر بها إلى العاصمة الرباط، يكثر من التعلق بفروعها والحديث حولها، كنت أرى فيها محنة الباحث عن عذاب جديد. أسكنت فيها شجوني وعواطفي وحنيني. رضيت بها قسمة من السماء و من الأرض، ولم أرض بها ورقة تباع وتشترى. لكن الزمان تبدّل و الناس أصبح همُّهم البحث عن المادة ووسخ الدنيا، هذه النقود التي تبعدهم عن ذكر الله تعالى. ها هو قد ذهب إلى مقام ربه الآن. هل أخذ معه

شيئا من وسخ الدنيا إلى الآخرة؟ أرجو من الله أن يغفر له. فقد كان يعتبر نفسه ابنا للعائلة ومن واجبه إنصافها و رد الحق لها. كان يقول لي:

ـ كل هذا الذي أقوم به من أجلك أنت ام الأولاد. حرام أن تكوني من سلالة النبي صلى الله عليه و سلم و من آل البيت و تُنْسين من طرف أبناء عمومتك.

حصل على إكرامية و رخصة نقل للحافلة بين فكيك و وجدة. رخصة استغلال النقل بسيارتي أجرة. نال الاحترام داخل الوسط الاجتماعي و بطاقات شرفية تأمر بالاحترام لحاملها... أولاده كبروا بهذا العز في الانتماء... إنما ما من أحد علم بعذاب الفراق الذي عانيته في ابتعادي عن عائلتي. هذا الابتلاء الذي نخضع له كل مرة هو اختبار لنا في مدى قوة إيماننا. يستحيل أن نكون من آل البيت ما لم ننجح في كل هذه الابتلاءات. والحمد لله، الوقت تبدّلت و تغيّرت الآن و لم يعد ظهور لكل هذه المعاناة و المآسي."

-★★

حينما يحكي الحاج عياط قصة حياته لزوجته، يتشاركان الدموع الأسية على المفقود كما على البعيد. كان جرحهما مشتركا. عساهما يعوضان بشيء ما ذلك الفقدان و الألم الذي يسكن الذات و يجرح الوجدان.

كانت أسرة الحاج السليماني مستقرة بسفوح جبال البرانس، تغترف من الذاكرة تاريخ عائلة ممتدة في الزمن كما المكان. تاريخ مجيئهم من مدينة تلمسان، ودخولهم بلاد المغرب. قليلون من يعرفون أمجاد هذه العائلة. تطول سهرات الليالي و حكاياتها التي يتناقلها الصغار عن الكبار. تتطلع أعين الصبايا لرواية الجدات في الشتاء و في كل فصول السنة. عالم ذهني يتشكّل بأكوانه في عقولهم. كيف جاء إدريس بن عبدالله من بلاد الحجاز إلى بلاد المغرب. كيف تأسست الدولة الإدريسية. كيف كانت إمارة ابن عم إدريس الثاني على مدينة تلمسان. تبقى صورة المنديل الذي تمسح به الجدة جفونها من دموع حارقة ومنعكسة مع ضوء القناديل.

يخترق السيد فحص الخالدي هذا الحكي، و يتدخل بمنطق تحليله لكي يضع الرواية على سكة منطقية و سليمة بدون تعارضات و لا هفوات. يستميل زوجته شادية لكي تفهم قصده. لا يريدها أن تفهم تشكيكه في أصول الشجرة و لا في مجدها الغابر. غرضه احترام هذا البحث الجينيالوجي كحق من حقوق الإنسان الذي يحدد به الهوية التي يشاء، و إلا ففي النهاية ـ وكما يخاطب بذلك من يقترب من فهمه ـ الكل من شجرة الإنسانية الهاربة من فراغ و الذاهبة إلى سراب داخل هذا الزخم من المعتقدات والتوهمات الطموحة:

ـ لا يمكننا الحسم في قولك بالانحدار من الشجرة الإدريسية. بحسب المعطيات المتوفرة، فابن عم إدريس الثاني هو الذي كان واليا على مدينة تلمسان في ذلك العهد. ما لم نتأكد

منه هو انحدار الوالي من إدريس الثاني. اللهم أن يكون الوالي بعده هو أحد أبنائه أو أحفاده. لأن الذي كان واليا و يحمل اسم سليمان هو ابن عم إدريس الثاني. فأي سليمان تنحدر منه شجرة السليمانيين؟ يمكننا أن نقول أنها أسرة تنتمي للعلويين. و ننطلق من امتداد أسرة العلويين و انتشارها في بلاد المغرب والشمال الإفريقي. يطرح سؤال: هل نزح أبناء عمومة إدريس بن عبدالله من بلاد الحجاز فالتحقوا به في بلاد المغرب، خصوصا بعد توطيده لإمارة و دولة ذات نفوذ و انتشار جديد يعوّض النكسة التي تعرضت لها في المشرق؟

ـ أصبحت في قفص الاتهام عند زوجي العزيز. ما بيدي حيلة سوى أن أقبل تساؤلاتك. لكنني لن أنساق معك فيها. اجعلها لبحوثك الجامعية. المهم عندي هو معرفة تاريخ العائلة. و قد قلت قبل قليل بأن المعطيات غير كافية للحسم في إجابة واحدة على هذه التساؤلات. لك بحثك. أما أنا فلا أقدر على نفَسِك فيه.

ـ أنا سأعود لأقف على قصة الحاج عياط. كم هي غريبة هذه المفارقة العجائبية. لماذا استغنى عن تسميته الأصلية و اكتفى بالحاج عياط؟ هذه الوثائق التي سلّمتنا إياها خالتك لالة فاطمة الزهراء، تجمع تاريخ عائلته و عائلتك. لو كانت عندنا حرية لصوّرنا سينمائيا ما جرى وعرّينا هذه الحقائق التي تحجبنا عنها و تحجبها عنا ستائر ملتبسة بالسياسة و الدين. فمن سيحاسب هذا الظلم الواقع على أسر وجماعات بشرية داخل بلاد المغرب؟

يأخذ صفحة أجندة جديدة. لم يكن يتوقع بأن الجذاذة التي بدأت صغيرة الحجم في بدايات دراسته الجامعية ستصبح بهذا الحجم وزيادة بعض الأحيان:

ـ لا. هذه ليست بجذاذة. و إن كان الاسم مذيلا بشروحات وتحليلات، فهي فصل من دراسة يمكنها أن تنجز.

يوقف نظره فوق لونها البني الداكن. يزاوج بينه و بين غموض مسارها السالف والآتي. يشعر بدرجة حرارة زائدة تسري في رأسه. مخزون المقروء بين وثائق الحاجة فاطمة الزهراء. متراكم ما يعرفه عن تاريخ شمال المغرب و المقاومة الريفية للاحتلال الإسباني. شبكة توتراته المعرفية و السياسية قبل التاريخية. كلها عناصر زادت من تلك الحرارة فجعلت حبر القلم محموما بحروف من حطب يتقد بها:

أحمد بني وكيل، هو اسم الحاج عياط. من نواحي الناضور، منطقة العروي تحديدا. أسرة أو عشيرة أو فخذة من قبيلة نزحت أواسط العشرينيات من القرن العشرين إلى ما شاء الله من بلاد المعمور فوق رقعة خريطة هذا البلد.

محمود بني وكيل: مقاوم حيّر الإسبان و استطاع قتل عدد كبير من جنوده و خدمه وجواسيسه. يوم تم القبض عليه، تمّ إعدامه في ساحة عمومية بالرصاص أمام أهله وذويه و سكان القرية.

السؤال المطروح: هل تم تهجير أهله أم إنهم اختاروا الهجرة و إفراغ المنطقة من حضورهم ما دام المستعمر مستمرا في تجديد معاناتهم؟

ما يعلمه فحص الخالدي عن أسرة بني وكيل هو ذلك الامتداد العلاقاتي لبنوة عمومة موزعة بين ربوع أماكن عديدة. و ما بدا له هو تواجد عدد كبير من هذه الأسر بوسط المغرب. ما يدل على هروبهم أو ابتعادهم من منطقة النفوذ الإسباني. لقد خافت الأمهات على أولادها بفعل تربص المستعمر بهم و إلصاق كل التهم بمحاولات المقاومة لتواجده،

وبفعل احتقان نفسية الصبيان و الشباب و اشتعال نار الغيض والحقد على هذا الذي قتل رمزهم في الشجاعة أمام أعين أمه و أهله.

الحاج عياط بقي على تخوم منطقة الاستعمار الإسباني، لم ينزح إلى جبل زرهون أو مقدمة جبال الأطلس بنواحي مدينة الحاجب. اختار الاستقرار بسفوح البرانس، قلبه موزّع بين وديان و فجاج الطرقات التي زحفت بالأهل و العشيرة، و عقله و ذاكرته بقيا هناك في تفكير مع الآتي. اختار جسر هذا البين بين. منطقة تتوزّع انطلاقا منها الخرائط، حتى بالنسبة للقوافل و الأسفار و الهجرات التاريخية. رأى في أعين أهل البرانس تلك الثقوب التاريخية التي تشخّص لكل مار عبر فجاج تازة و ما جاورها، جروحه و علله. احتضنه أهلها مثلما احتضنوا أسرة السليماني الآتية من شرق البلاد، من مدينة تلمسان. الذاكرة هنا و هناك. هذا الاحتضان و ذلك التشرد و التشتت.

إذا كانت أسرة السليماني قد نزحت من الشرق رفضا لطغيان المستعمر الفرنسي الذي غرّب أهل الجزائر، فآثرت العيش تحت ظلال الحكم الخليفي المغربي العلوي، و في الأمر التفاف حول شجرة راجعة لأصل الحكاية و الشجرة، فإن السيد أحمد أبا وكيل وقد وهبته أمه لقب أبيه محمود أبي وكيل، قد تشبّث بجذع الشجرة الأخير رفضا لعاصفة الاجتثاث التي سحقت الوجدان قبل إفراغ الديار. يوما ما سيعود. هكذا كانت أمنيته. سيعمّر الديار. سيدعو العشيرة و الأسرة الكبيرة لكي يرجعوا إلى موطن الفؤاد. هكذا كان يصرخ في صمت داخلي. لا تسمع لصراخه حرفا. هي دموع متفجرة كانت ترافقه وهو جالس في أعالي الربوات، موليا ظهره لساكنة القرية التي احتضنته. لا يعود لها إلا بعد هذا القداس الخاص به كطقس ديانة تجاهلتها الديانات والمعتقدات.

داخليا، كان الحاج عياط لا تستوي زواياه لمقامات الإيقاع الرباعي أو السداسي الموسيقي الذي تهتز له و معه جوارح الذات الراقصة في الفرح أو الحزن. لذلك كانت مكانته بين أهل البرانس تقديرا لشخص صلب و يزداد صلابة كلما كبُرت القضية وتقادم التاريخ معها.

يلاحظ فحص الخالدي أن العكس هو ما يقع مع الحاج عياط. استثناء فريد يؤكد أن التقادم لا يسقط الدعوة أو يبطلها. بالعكس، هو تقادم تزداد معه شروط رفعها من جديد، و تتراكم معه عناصر الجرم الذي يلتصق بالمسبِّب له، بالمستعمر على الخصوص.

لم يكن الحاج عياط لصّا في يوم من الأيام، و لا متسوّلا البتة. يوم هاجر أهله إلى أماكن وسط المغرب، إلى جبال زرهون المحتضنة لكل من جَرحه تاريخ الحكايات، بقي هو تائها بين وديان و جبال البرانس. رزقه و عيشه مع السماء و الأرض. عيناه جاحظتان ومشَخّصتان لكل صغيرة و كبيرة. حواسه منتبهة لكل حركة أو صوت. مسافته الموجبة للاحترام و عدم الريبة في شخصه ساعدته على كسب ثقة المتحاور معه أو المتجاور مع خطوه و ظل جلوسه. ذلك الإنسان الذي احتارت الشمس من صلابته و من مقاومته لأشعتها. دهِمْته و لوّنته و فحّمته، أرادت تغيير شكله، كان هو المقاوم لها و الذي يحرق بلهيبها أنفاسه المتقدة لكي يحافظ على جوف البركان وبحيرته الأولى...

الْتأم الغريب مع الغريب. اقترح عليه الحاج محمد السليماني، عم ابّا المعطي السليماني، العمل عنده. زراعةٌ في حقل و رعيٌ لشياه أو معز، و ما ارتبط بهما من سخرة كريمة... أشكال اختبارات عفوية و عملية لمدى الأمان و الاستئمان، نسجتها الآية الكريمة لا شعوريا واستحضارا كذلك:

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

و كانت المصاهرة التي جعلت السيد أحمد أبا وكيل فردا من أهل أسرة السليماني. مرت سنوات قبل أن تفترق بهما الطرق. بقيت التجارة المشتركة و قطيع الأغنام الذي يسهر السيد أحمد أبو وكيل عليه أمانةً، عليه أن يتتبع سلامتها و استمرارها. و كانت سببا يلائم مبتغاه في عدم الابتعاد عن شهقة الشمال التي يعانقها مع كل ريح آتية بعليل نسيم منطقة العروي و الناضور و البحر. نعم. سيراود القلاع و يحوم حول التخوم. سينتظر مسافة الخلد اللامنتهي لكي يرجع بالزمن إلى الوراء ويصحح الخطأ و الظلم و يقضي على الاستعمار و وحشيته... هو هذا شعوره، لكن حياته مثل باقي الناس، لابد لها أن تكون طبيعية بقوانين هذه الطبيعة التي قد تكون قوانين غاب ما.

سيختار السيد أحمد أبو وكيل الشرق و اتجاه الشرق الجنوبي. بين وجدة و بوعرفة وفكيك، كان ترحاله و بحثه عن طريقة للاستقرار. وبين حقائبه و في جوف إحداها كانت الشجرة مستكينة و مستريحة من حكاية الجراح و الرقص بين الماء و النار، بين القداسة و لعنة التاريخ و السياسة.

الحاج عياط لم يكن مسؤولا عن الماضي. و هذه الشجرة إذا كانت ستنفع، لماذا لا تنفعه هو الآن؟ أكيد أنها لأسرة زوجته الحاجة فاطمة الزهراء، لكنها ذات قيمة حياتية لهما معا. هكذا اختار الحاج عياط قبل حجّه أن يشق لها طريق حياة جديدة، و أن يمدها بجداول سقاية تبعث فيها روح الإزهار و الإثمار.

ترك السؤال الذي راوده مرة : لماذا اختار الحاج محمد السليماني ترك هذه الشجرة بعيدة عنه مع ابنته فاطمة الزهراء؟

يستغرب السيد فحص الخالدي لشجن الحاجة فاطمة الزهراء... كلما عاد بسؤاله حول الشجرة و لماذا تركها الحاج محمد مع صهره... مرة تقول بأنه كان يخاف عليها من ضياعها في

مجهول هجرته إلى نواحي فاس. كان يعلم سلطة القائد الذي اختار منطقته لكي يستقر فيها بدل سفوح جبال البرانس... و مرة أخرى ترجع بالشجرة إلى حظوتها عند أبيها الحاج محمد... أراد لها ورقة أمان تحميها من كل تسلط أو طمع في مالها ومال زوجها... والحاج محمد يعلم أن نصف ماله ماشيةً و تجارةً قد تركه أمانة عند سيدي الحاج عياط كما تحب أن تناديه و تترحم عليه بهذا النداء حين ذكر اسمه...

ـ لو لم تكن الشجرة، ما استطعنا الاستقرار في مدينة فكيك والتعايش مع أهلها.

(واحة فكيك ـ كما يسجلها السيد فحص في جذاذة مذهبة اللون و خاصة بها ـ مقسمة بحسب القبائل و تسمياتها. و هي من أعرق مدن مغربنا الشرقي. كائنة في مناخ شبه صحراوي. عبارة عن واحة كبيرة تتكون من عدد ضخم من النخيل تتوسطها قصور سبعة، تكون تجمعا سكانيا واحدا. "قصر المعيز، قصر لوداغير، قصر اولاد سليمان، قصر الحمام الفوقاني، قصر الحمام التحتاني، قصر العبيدات. قصر زناقة" في الأسفل ينفرد عن القصور الأخرى بسبب الجرف المحيط به و بكونه متاخما للحدود مع الجزائر).

تعود الخالة الحاجة فاطمة الزهراء للحديث المتباهي بالشجرة و النسب و بطولات الحاج عياط:

ـ استطعنا أن نجعل لنا قصرا خاصا بالمدينة، احترمه الجميع و تبرك بأهله الجميع. كان للشجرة دور في تقديم باقي القصور لكل المساعدات التي نحتاجها. حينما علم سكان منطقة بوليف الجزائرية بتواجدنا بمدينة فكيك، بعثوا بمن يقدم التحايا و الهدايا... وجد سكان فكيك في استقرارنا مزيدا من توسعة لتجارتهم المنتشرة في مختلف مناطق المغرب والجزائر... كان الحاج عياط يسافر فيأتي بجديد المدينة إلى أعيان فكيك من أصحابه... حينما حصل على ترخيص الحافلة وسيارتيْ الأجرة أصبحت له قربة عند مسيّريها، وأصبح

أولاد الحاج عياط محترَمين و مطلوبين للمصاهرة و العشرة... أبناء عمومتنا من السليمانيين، وفدوا علينا طالبين القرب و الاستقرار... فكان قصرنا يتسع بهاء وافتخار... هذا مجدنا الذي بنيناه بفضل الشجرة... أتعلمون لماذا بقيت معي أنا... كنت شجرة معزولة في صحراء بدونها، ستجترفني العواصف و تقتلع جذوري و يمحي ذكري... كلما مرت السنون كلما ازددت استنتاجا و تفسيرا لسرها... أنا كذلك تساءلت: لماذا لم يأخذ أبي شجرته معه؟ لقد كان قادرا على كل أشكال التحدي. يملك من العلاقات والمعارف ما يكفيه لإبرام اتفاق أو الحصول على ما يريد... مقامه عند المخزن كبير جدا، لولا تلك الحادثة الفاجعة التي غيّرت مسار العائلة وهدّدت استقرارها.

يسمع السيد فحص لحكي الحاجة فاطمة الزهراء، و يعيد تحليل شخصيتها وشخصية الحاج عياط. فمن خلالها سيستطيع فك رموز التحولات الجغرافية في انتقال و استقرار عائلة شادية سليمان، بأبيها وعمها و أسرتيهما الكبيرة والصغيرة... سبب النزوح من سفوح البرانس ومدينة تازة إلى نواحي فاس... سبب الانتقال إلى مدينة مولاي إدريس زرهون... سبب الاستقرار بمدينة مكناس... يعتبر هذا تاريخا قريبا للعائلة لا يحتاج إلى الشجرة للعثور عليه وتسجيله...

فمروي شادية عن أمها و خالتها و زوجها و أبيها و عمها و باقي أفراد السليمانيين بأصولهم وفروع أصولهم، يسجل في الذاكرة ما جرى ويجري... كلهم يريد تصالحا مع التاريخ و فهم قصة التنقل الدرامي الذي تعرفه العائلة منذ القدم، بين الحجاز و تلمسان تازة و فاس وزرهون. إنه التاريخ الراهن جزء من التاريخ العام.

رغم هذا السرد الملحمي الذي تم تسجيله مع الحاجة فاطمة الزهراء، فإن أفراد عائلة السليمانيين بالرباط و مكناس و غيرهما من المدن قد تموقفوا من الحاج عياط بشك يعتبره

دجالا وخائنا و انتهازيا... برؤية الامتيازات التي استطاع الحصول عليها باسمهم وبفضل شجرتهم... رغبة في استرجاع أمجاد و كذا في تنافس استفادة ريع من هذه الشجرة... تختلف نظرتهم كما أعينهم حين التوغل في المشكل و الموضوع... تتميز الأرض اليباب عن المكتفية بحالها... ليسوا كلهم شادية سليمان... لو نشبت حرب في القضية لكانت أول حرب حول شجرة أنساب... هكذا يتلاعب السيد فحص الخالدي بالموضوع القضية ويرشقه بمثل هذه الافتراضات و التساؤلات... كل شيء محتمل الوقوع لو أعددت له وقودا و حطبا كافية...

هكذا يلملم السيد فحص الذاكرة استحضارا و استقراء لمعلومات تراكمت في ذهنه، في رحلة الاسترجاع لوثيقة العائلة السليمانية، شجرة الروح التي ستسقي فؤاد زوجته شادية وبحثها عن قارورة عطر تشم من خلالها ما ينعش ذهنها و يقوي دماغها فيشعله بالذكرى والتفكر، مثلما يدخل في مرآتها ابتسامات الشخوص المحاورة لها ابتداء من أمها قبل أبيها أو أعمامها وأخوالها.

شادية، أكثرت من الانفعال خلال المدة التي سبقت هذا القبض على جذع شجرة جذورها و أغصانها بين الحروف، و التي تحتاج إلى تبرعم كلمات جديدة تذيل الوثيقة بما انصهر و انبلج من سلالةٍ فقدت بوصلة هويتها التاريخية كما فقدت قوة الاعتراف بها. ذلك أن التنافسية ذكاء حاد في هذا المجال بين الاعتراف والاغتنام... و هذه المدينة التي شيّئت الفرد و جعلته مجتثا، لم ترِد شادية سليمان أن تستمر كضحية داخلها فاقدة لهوية ولتاريخ شخصي يعطيها شرعية الرغبة في الاستمرار في الحياة فوق هذه الأرض وداخل هذا الوطن...

خارطة جديدة يرسمها ذهن فحص الخالدي و دوائر جديدة تضم علامات الاستفهام حول أحداثها و تطوراتها.

الدائرة الأولى التي حملها بيكار المساء فوق خارطة الوطن، كانت منطقة البرانس و تازة. وداعا تلمسان.

الدائرة الثانية التي غيّر لونها لجمالية الحكي الدرامي التي سترافقها كانت منطقة شراقة وفاس. و كانت اختبارا ضد النزوات.

الدائرة الثالثة التي وزعت الشجرة خشبا لأثاث الحياة و ديكور المدن الجديدة في الاكتشاف، سمّاها السيد فحص فيما بعد ب(*هودج البحر*)، نظرا لتداخل القارات في تأثيثها. كانت بمنطقة جبل زرهون ومدينة مكناس.

هكذا أصبح التاريخ عنده سلسلة دوائر مترابطة و متداخلة، و داخل كل سلسلة تتوالد الحلقات و الدوائر.

ـ هنيئا لك بحلي الجواهر غير المملوك.

كانت جملته طلسم استراحته من رحلة الدوائر قبل أن يغمض جفنيه في خلود نوم مؤقت إلى حين.

-★★

احتاج السيد فحص الخالدي لزيارة المكتبة الوطنية. غرضه نبش في صفحات ولّى زمن الاشتغال عليها. بحوث سابقة كان قد وجّه إليها طلبته فيما مضى من سنوات. ها هو الآن يخطو من خارج سيارته عابرا موقف السيارات. يرفع رأسه للسماء فتلهبه أشعة الشمس في شهر دجنبر الذي تعطّش لقطرات مطر شتوية. لقد نسيَ نظاراته الشمسية داخل السيارة. أغمض جفنيه في قياس حدسي لما تبقى من تلك الخطوات المولجة لداخل البهو المغطى حيث مركز الاستقبال. بطاقته الجامعية والأستاذية جعلت الموظفين وحراس الأمن يرحبون به ويفتحون له الممر الجانبي عن المدخل المراقب إلكترونيا والمتحكم فيه ولوجيا.

يدير بصره بين الزوايا و الأركان، يأخذ نفَسًا تاريخيا يستنشق فيه من قرون الأحداث والروايات. كم من وثيقة تحتاج إلى دراسة و توثيق علميين، وكم من مخطوط يحتاج إلى إنقاذ. تنفلت منه هذه التساؤلات انفلات السمك منزلقا داخل الماء. قد لا يقبض على شيء. لكنه بعمق و كِبَر صبر الصياد، مهمته الإخلاص في أدائه، أما القبض على شيء فهو كل مرة في شأن و نتيجة.

في قسم التاريخ تناول بين يديه رسالة دكتوراه أشرف عليها صديقه في الشعبة السيد حمادي الغالي. أراد ان يطّلع عليها في إصدارها ككتاب صدر بتوصية من اللجنة المشرفة في المناقشة. لم يجد السيد فحص بدًّا من المجيء إلى فضاء المكتبة الوطنية حيث يضمن العثور عليها خصوصا و أن النسخة التي كانت عنده قد انفلتت إلى مجرى زئبقي بين أيدي باحثين لم يتذكر منهم إلا القليل. خصوصا و أن الكتاب مصيره في الاقتراض عدم الرجوع في غالب الأحوال. ها هو الآن يتحسر على المفقود و يرجو تصفح الموجود.

تخلّص من معطفه و اتخذ مجلسه داخل أريكة في الممر الرئيسي السفلي. موضوع الكتاب وعنوانه هو (الريع المخزني لفائدة شرفاء أهل فاس و مكناسة الزيتون). يتساءل دون بحث عن جواب حول منع تداوله في سوق المبيعات العمومية. رغم توصية اللجنة المشرفة على رسالة الدكتوراه حول الموضوع بطبعه في كتاب. أشباح المنع و شبهاته كثيرة و لا ترى.

لن يطول البحث بين صفحاته. يتذكر ورود السليمانيين في قائمة المستفيدين. فعلا لقد وجد في الصفحة 146 ما يفيد ذلك. يأتيه صوت زوجته شادية هامسا و محاورا من دواخله. يجيب ذاته على الاستفسار الذي يرافق وسوسة الذهن. لعبة متناقضة بين إيجابيّها وسلبيّها. قد علّمه البحث العلمي حضورها، لكنه يغلَم صورتها المرَضية كلما ارتبطت بلوم أو تأنيب ذات أو شعور بالذنب. و لم ينج هذا الجانب كذلك من اهتمام واشتغال أستاذ علم النفس السيد حدو الربيعي. يتردد مع بداية فتح الكتاب: لماذا هذا البحث عن أشكال الاستفادة من هبات المخزن؟

يزيح في همهمة متغنية بدندنة خافتة كل الردود الممكنة للتسوية والطمأنة وعدم الإحراج أو الاستفزاز:

ـ أنتم من أهل البيت النبوي، و قد أوصانا الشرع في الكتاب و السنة بالتكرم عليكم وقاية لكم من ذل السؤال و فقر الحال. أنا فقط أبحث عن نوع الاستفادة التي كانت لكم في تازة ثم فاس ثم مولاي إدريس زرهون. حيث يرتبط الاجتماع بالاقتصاد بأشكال التبرع السياسي والمخزني، تكون عناصر الموضوع حاضرة في التحليل، و أقواس الاستفهام كذلك حول سبب الانتقال من ذا مكان إلى آخر.

أو أنتم مثلكم مثل باقي القبائل و العشائر التي استعان بها نظام كل خلافة في حروبه أو في تجارته و اقتصاده و إدارته و سياسته. من الطبيعي ان ترتسم العلاقات معكم بحكم هذا المنطق. لكن، ما الذي مكنه أن يميز علاقتكم معه؟

لا علم لشادية بكل هذا المونولوغ الذي تشارك فيه كشبح فقط. يدرك السيد فحص بأن شخصها يسكنه حبا و اشتياقا و ارتباطا. نصفه الذي يمشي معه و يشاركه خطوه وشعوره ورغباته. لأجلها جعل هذا البحث المتجدد في موضوع الشجرة التي تريد غرسها من جديد داخل حياتها بمدينة الرباط.

بين رواية شادية و متن الكتاب تقاطع في استفادة العائلة من ريع أراض فلاحية بسفوح البرانس. مشاكل جوار و حدود و استغلال أجّجت صراعات و نزاعات مع قبائل أصلية وقديمة بالمنطقة. ضاقت الحال و المصالح لعائلة الحاج محمد السليماني و جعلته يفكر في تغيير مكان الاستقرار و مراسلة السلطان حول ذلك. فكان الانتقال لمنطقة شراقة بنواحي فاس. لكن صيغة زوجته شادية تجعلها مشاكل عامة مع قبائل المنطقة ومع الخوف على أولاده من اندفاعهم في حركات مقاومة ضد المستعمر. قد يحضر هذا وذاك و قد يتجاور و يتزامن النقيضان. لا طعن في الروايتين. كلتاهما تدعمان أسباب النزوح إلى ضواحي فاس.

آه. لقد تذكر. يستعمل الباحث في كتابه مصطلح الريع. بينما تستعمل شادية بحكي خالتها وأسرتها مصطلح الوقف و الحبوس. و بين المصطلحين يتجاور السياسي والديني. قوس آخر يزعجه عقليا في التناول. استهلكته دراساته السابقة، لكنه ما ينفك يستفزّه ذهنيا وفكريا. يتعامل معه بديبلوماسية مناسبة حتى لا يُعَثِّر طريق بحثه ودراسته دائمًا.

حينما يلمس جذاذة منطقة شراقة و يفتح قوسها بين الصفحات المتضمنة لحكيها، يتطلع إلى إخراج درامي للأحداث. يقف السرد التاريخي لكي يبدأ الحدث الاجتماعي المتفاعل مع النفسيات و العادات والأخلاق.

-★★

سيتسع العقل و يضيق العمر حتى إنه لن يسعف الذات فيخونها في رحلة أخرى غير هذه الحياة.

عبارة حضرته و هو في حصة المشي ببذلته الرياضية بين ممرات غابة السويسي حيث يرافقه فيها صديقه علي الزين أستاذ اللغة الفرنسية وآدابها. كان حدو الربيعي قد شاركهم في رياضة المشي مرة واحدة، لكنها أزعجته بتشخيصاتها المجالية التي أقلقت باله و عقله فاستبدلها بفضاء غابة الهرهورة التي تدخل في سياسة الحزام الأخضر للعاصمة الرباط، والتي فعلا توفر هواء خفيفا خاليا من الرطوبة و منعشا للتنفس...

لم يستسغ السيد حدو تمظهرات مدنية و تراتبيات اجتماعية و سلطوية إدارية سائدة في المجال الرياضي والبيئي بالسويسي. سيستغرب السيد فحص و السيد علي لملاحظاته، لكنهما يجدان العذر له في واقعية تحليلاته. فقط أنهما سيستغربان حول هذا التقاطع الذي يجد له الطريق في الربط بين التحليل النفسي والتحليل السوسيو اقتصادي وسياسي...

حينما كتب عبارته داخل السيارة و قبل أن يدير المحرك و ينطلق عائدا إلى إقامته وأسرته، توقف هنيهة مستدركا تشابهها مع ما قد ألِفه من تعليقات أدبية و صوفية. يتذكر قول النفري (كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة). يراجع مكتوبه و يستنتج أن عمليتي الاتساع والضيق حاضرتان، فقط أنه نقلها من مقارنة العبارة مع الرؤية إلى ضيق عمر عيش الإنسان و انفلات مسافة زمنية فيه تكفي العقل لكي يزيد من وعيه وفهمه و علمه.

استشعر نفَسا غريبا مع صفاء حواسه و اتساع عمليات تنفسه. بقدر الشعور بالراحة مع هذا المشي بقدر الشعور بقرب فقدان نفَس الحياة في الآتي... ليست المرة الأولى التي تراوده فيها أفكار الموت، فمع تنبيهات الطبيب له و لعاداته في التدخين و الشرب،

ازدادت مشاعر التهديد الوجودي عنده. لكن ضغطه على محرك السرعة أنساه هذا الشعور و ألقمه في لعبة الحياة التي تنسي صاحبها كل تهديد أو أجل مباغت و تدخله في دوامة مواصلات المدينة واتصالات الحياة.

في الطريق، استحضر رابطا آخر بين عبارته و بحثه. آخر ما كتبه كملاحظات مأخوذة من كتاب (الريع المخزني لفائدة شرفاء أهل فاس ومكناسة الزيتون)، تضمن الإشارة إلى تجاور القبائل و تعايشها في إطار الحفاظ على مصالحها المشتركة و على توازناتها. كذلك في إطار امتيازات الولاء لسلطة عليا تمثلها الدولة الحاكمة أو الخلافة القائمة.

حينما يلاحظ امتداد القبائل في منطقة شراقة أو شراكة بلغة أهل البلد، و ذلك التمازج والتجاور بين الأمازيغ و العرب، يرى أن ما يسير التاريخ هو استمرار المصالح مع استمرار أصحابها أو العكس في الحقيقة. فبحثه التاريخي أصبح سيكولوجيا وسوسيولوجيا أكثر. وهي قيمة وأهمية دراسة الحقب و البنيات التاريخية على الخصوص. تتخذ الطريق من حي السويسي إلى حي الرياض مناحي تفكير جديدة، ستكون مشروع كتابة في يوم هذا الأحد مباشرة بعد عملية الاستحمام و الاستراحة الصباحية.

ـ أين هي شادية من شقاوة هذه الرحلة؟

ـ في تحضير باقة ورد للفاتح الجديد لصفحات التاريخ الشخصي لها.

تبتسم داخل فستانها الخزامي المفتوح و شالها الأصفر الذي يجعلها زهرة متفتحة في أواخر شهر دجنبر البارد. تنشرح دواخله لهيأتها وابتسامتها و كلامها. شَعُرَ بِتبلسم جراح تفكيره وتعبه. انتعش بمقويات نفسية من ساكنة فؤاده. احتاج إلى التعبير عن كل هذا وعن فورة دمه و كأنها مستمرة في تمارين المشي التي ابتدأتها هذا الصباح. يكفيها أن يكون مهيأ لضمها بين ذراعيه و مداعبتها بمقدمات قد لا تكون لمعاشرة جنسية، فقط لتغذية عاطفية

بحسب المقام والكلام والمناسب في الزمان. و طيف رانيا المار بين ممر الحمام و المطبخ يخفف من وهج أي اشتعال فيعيدهما إلى رسمية اللحظة و مطلوبها اليومي. ألفت شادية تنهيدتها المصاحبة لانفلات لحظة مناسبة. يتستران على اللقب ـ التهمة التي يجعلانها لابنتهما رانيا: (منّاعة الطرح). لو عِلمت بما يصفونها به لقامت القيامة و تشرعن الغضب الجميل في أجواء الفيلا ومناخ الأسرة. تتسامى شادية عن الرغبة الجامحة في لحظتها بمألوف الكلام والأشغال المنزلية ومتطلباتها الصغيرة و الكبيرة:

ـ رانيا، هل ترافقينني إلى باب الأحد لاقتناء بعض الأغراض؟

ـ إذا شئت يا ماما غدا ألتحق بك بعد الخروج من العمل. أما اليوم فلا يمكنني ذلك. شوفي بابا يرافقك.

كانت رانيا تفكر في مشروع جديد لحياتها. اختارت مع خطيبها البحث عن سبل تحقيقه وعن إيجابيات القيام به. لم تُرِد مواجهة والديها بالأمر حتى تعدّ جميع المعلومات والامتيازات والمقارنات... و في هذا الأحد ستجلس من جديد مع خطيبها لمواصلة البحث و التفكير في الموضوع الذي هو الهجرة إلى كندا. باب بحر ستبتلعه السماء وستترك السيد فحص الخالدي و كذا السيدة شادية سليمان معلقين في سحاب تحليقه.

جلسة جديدة و منفردة لفحص الخالدي مع ورشات كتابته و بحثه. سينطلق من العبارة التي توّجتها صبحيته الرياضية (سيتسع العقل ويضيق العمر).

-★★

لقد عُرف القائد ابّا محمد الشرقي بجبروته و قوته. لم يكن الوحيد المتصف بهذه القساوة، سبقه في الصيت آخرون. تدرجوا في الجاه والسلطة، فمنهم من طمع في ملك و منهم من تقلّد مناصب دولية وأقام علاقات خارج الحدود و امتلك المال و تحكم في مناطق نفوذ وبشر كثيرين.

إنما نفوذ القايد ابّا محمد كان ولاء للسلطان و تحكما في منطقة قريبة من العاصمة فاس. كان نفوذا لا يحد و لا يجد له حدودا مع أيّ كان. و رغم أن الحاج محمد السليماني استقر لتوه لمدة لم تتجاوز السنتين في منطقة شراقة على مشارف نهر سبو و في أقرب مسافة تجاه مدينة فاس حيث الولاء الأكبر و الأمان التاريخي في الانتماء، فإن المشاكل كانت ابتلاء يتهيّأ له الحاج السليماني مع عائلته. و كأن القدر يزاحم المكان في اختيار الإنسان لرحلة الزمان. لكنه التحدي المستمر الذي لن ينتهي في حينه.

سيعود السيد فحص الخالدي لألبوم صور عائلة زوجته شادية سليمان. ما احتفظت به ذاكرة الصورة لأمجاد و تاريخ العائلة. بطلا الحلقة الجديدة في الحكي و التأريخ نقيضان في الوجود والأمنيات. قدريات إذا خطّطت لتلاقيهما، ربما قامت الحروب. سيحتاج إلى ملامح فيلم خربوشة في مقاربة اللحظة و الصورة.

كيف ستكون تربية ابن قائد متعجرف و متجبر، تربية شاب عانق العشرينيات وفتِحت له أبواب الحرية و الأمنيات بأساليب أبيه وخدمه. وصف له الوسطاء الذين يعملون على خدمة غرائزه كما على تربيته على سياسة أبيه في الاستعلاء والكبرياء و الخيلاء، قضيب خيزران بجناحي فراشة و تحليق يمامة و خد رمان متورد و عينين عسليتين من نبع شهد وروح تَطِير بأجنحة حور العين و تنزلق في الماء بحسن رشاقة و خفة حركة... كانت تلك

أوصاف الصافية، اسم على مسمى. ربما ملاحظات السيد فحص الخالدي هي التي انعكست وصفا لها في الصورة. و ربما هذا ما حرّك ابن القايد ابّا العربي جنونا ساقه إلى سلوك متهور، رغبة في الرؤية يوم كانت الرؤية تمنيا كافيا.

لقد فكّر ابن القايد في حيلة جهنمية تجعل أهل الدار ـ دار الحاج السليماني ـ يهرولون أجمعين خارج الأسوار، حتى يرى هذا الملاكَ الصافي الذي وصفوه له صفية صافية. كان الملاك لا يخرج لأعمال منزلية و لا يحتاج لأغراض خارجية. كل شيء تحضره الخادمات وتقربه المساعدات. جنتُها داخل قصر أبيها. عالمها صنعة و تعلم و لغة أدب وسماع شعر وقراءة كتب. هكذا تربّت الصافية خلال طفولتها و في شبابها الذي أشرق ربيعا و تبرعم جمالا وحسنا.

هيّج ابن القايد حصانه و حرّضه على زوبعة اسطبل البغال و الجياد والبهائم. قامت ضجة وسُمِعَ ضجيج من داخل الأسوار، كأنها فتنة سيبة قد غزا مرتزقوها ديار الحاج السليماني وأهله سبيا و غنيمة. و فعلا خرج الخدم و نساء المنزل في صراخ و هرولة إلا من الصافية التي بقيت داخل غرفتها لا تعرف ملجأ في العالم الخارجي غير ملجإ قلبها وحماية حب أبيها لها...

كان رجال المنزل في سفر تجارة قريبة في مدينة فاس. سيعودون مع غروب الشمس. وعاد هؤلاء فسمعوا الحكاية و ما جرى فيها و علِموا سببها و غرضها... كانت كافية كرواية لكي تشعل فتيل الغضب و تهيّج الهمّة لأجل الدفاع عن الشرف و رد هذا الجور الذي أراد انتهاك حرمة المنزل و الأهل في غياب أصحابه و رجاله.

أخذ الحاج السليماني بندقيته و اتجه صوب مجلس سمر و مجون ابن القايد ابّا محمد الشرقي. صوّب في فورة الغضب باروده و عقله لا يدري ما يقع و ينصرف كحدث.

كانت لحظة بألف سنة و زيادة. تمثّلت له كل أشكال التحديات التي سبقت و التي ستأتي. تصوّر سلطة القايد فوق سلطته. تحكّمه في كل شيء. تهدّم بناء العقل هذا مع لحظة الغضب الجارفة مع لحظة وجودية متعسفة على النفسية وعلى الوجدان. ارتعاش داخلي صاحب فورة الدم هاته. ثقل هموم الزمن الذي هجّر و الذي هدّد، اجتمع في تلك اللحظة لكي يُصَفّي مع الخوف حسابه، و لكي يخلّص النفس من نوازعه... أردى ابن القايد قتيلا غارقا في بركة دم وقّعت بالأحمر على وفاته و على نهاية مغامرات طيشه... سرعة الأحداث لم تجعل و لم تترك فرصة للتفكير في الما قبل و الما بعد. لكن العودة بعد الأخذ بثأر الشرف خلقت جوا من الفزع وصورة لحقيقة ما وقع و انتظارا لما سيقع. لم يترك أفراد العائلة الوقت يمر. كان الاستنتاج سريعا في ضرورة شدّ الرحال و ترك المكان وإنقاذ الأسرة السليمانية بإخوانها و أخواتها وبأولادها وأحفادها وزيجاتها إلى مكان آمن آخر.

كان الليل محراب الأمان الذي ولج ظلامه سرب العائلة حاملة معها أقل ما يمكن من اللباس و المال و الحوائج الضرورية. كان ظهر البعير و البغال مستنفرا من سرعة الخطو وطريق النجاة التي أبعدت عائلة السليماني من بركان القايد الذي حضر متأخّرا عن كل ما وقع... اتخذ طريق مدينة فاس باحثا عن الفارّين من غضبه و وعيده و سلاحه، وكانت القافلة تسري في اتجاه طريق دار الضمانة بوزان، لكنها سرعان ما عرجت على مداخل جبل زرهون من جهة قرية بني عمار، قاصدة ضريح مولاي إدريس زرهون وتاركة كل ما قد وقفه و حبّسه السلطان عليها بمنطقة شراقة، و كل ما ثقل حمله ووزنه هناك.

و كانت المزاوكة في حرم الضريح، ضريح مولاي إدريس، بجوار وشفاعة أبناء عمومتهم من الشرفاء الأدارسة، لتبدأ رحلة أخرى جديدة لم تتخلص من رائحة بارود القايد الشرقي بعد.

هي أم شادية، لالة الصافية السليمانية و قد سبّب جمالها في كل هذا الذي وقع. لكنها آمنة الآن و مأمونة بين أحضان جبل زرهون و ضريح مولاي إدريس زرهون.

-★★

لقد قرر السيد فحص الخالدي تخصيص بحث مفصل و متجدد لظاهرة (المزاوكة)، عساه يعثر على عناصر جديدة لهذا المفهوم العميق في الثقافة السياسية والاجتماعية والدينية المغربية على الخصوص. فما دام بحثا في الشجرة وفروعها المتطورة و توظيفاتها المتشعبة حياتيا، فلا بد له أن يجعل أساس غرسها أصيصا معتنىً به و مكتملا في مواصفات الرعاية لشجرة قد تكون في حجمها أكبر من إطاره.

قد لا يمل الانتظار، ما دام مرتبطا بحقائق جديدة لا بد من حضورها و تأثيث مشهد البحث بها. و قد لا يستغرب لغرفة مكتبه و كيف أصبحت مختبرا للبحث الهندسي بخرائط و وثائق جديدة. نسخة الشجرة و قد علّقها في جانب من المكتب. دوائر تخترق تلك الخرائط و تحمل أرقاما و ألوانا مميزة بينها. أجندات متوسطة الحجم وقد أصبحت عند فحص الخالدي جذاذات تحمل على ظهرها (إتيكات) معنونة. وكان العنوان الجديد الموضوع بخط أحمر هو (المزاوكة). بحث عن جذر اشتقاق في المعاجم. استعان بزوجته شادية في البحث. انتظر لقاء ثلة أصدقائه من الأساتذة الجامعيين. و قبل ذلك بعث لدائرة تواصله الاجتماعي المغلقة، و التي تضم بعض أصدقائه و طلبته المميزين في مسالك الدراسة بالماستر أو الدكتوراه ـ هؤلاء الذين يحتاج لمواكبة جديدهم دائما...

أفاده هذا التواصل الاجتماعي عبر شبكة الفايسبوك أكثر. خصوصا وأن مناقشة أساتذة الكلية ستنتظر حصولها المؤجل...

كان تواصل يوم الاثنين مفيدا. خصوصا و أن محاوريه قد بحثوا أو فكروا فأفادوه بما هو متعطش لمعرفته أكثر. استغرب لانفلات هذا المفهوم عن دائرة وعيه و ضيق حضوره الدلالي عنده. لكنه استنجد بالبيت الشعري الذي أصبح قاعدة للنسبية و التي تقنع كل

واحد بها: لكل شيء إذا ما تم نقصان. ترحم على الشاعر، و دوّن الإفادات التي حصل عليها.

التدوينة الأولى المهمة، أشارت إلى جذور الكلمة في اللغة الأمازيغية ودرجة حضور مجموعة من الكلمات الأمازيغية في التداول اليومي للكلام بالدارجة العربية المغربية. أشار داخلها الطالب الجامعي محمد بقالي إلى وجود كلمات ومعطيات معجمية كثيرة أمازيغية في الأسماء والأفعال وحتى في حروف الربط. و استحضر كأمثلة على ذلك:

ـ كلمة (هضر) و التي معناها: تكلّم. و هي كلمة امازيغية.

ـ تعبير (أنا مزاوك فيك)، تعني أتوسّل إليك. و كلمة (مزاوك) أمازيغية، أصلها فعل (زوگ ZUG) ـ كما دوّنها كتابة بالحروف اللاتينية. و معناه أن يتعرض شخص ما للنفي أو الهجرة القسرية.

ـ كلمة (تامارا) و تعني العمل المضني. و هي كلمة أمازيغية كما تدل عليها بنيتها المورفولوجية.

إضافة إلى كلمات مثل (ساروت) و غيرها...

كأس رحلته الذي حمَل نسائم نعناع معطرة، شايٌ يحتضنه براد فضي صغير... فاكهة يابسة يقضمها و استراحة محارب من عناصر تدمير... هكذا كان شعوره خلال هذا اليوم الذي استنشق فيه هواء الغابة وتواصل فيه مع أفراد أفادوه فعلا في بحثه عن المصطلح المفتاح لموضوع الشجرة و عقدة الترحال لعناصرها الحية. إنما كانت استفادة شبه شفهية افتراضية، لابد له أن يوثقها بمصادر فيما بعد.

قارن بين شجرتين. الأولى ميتة داخل الأوراق، لكنها حية في خط الزمن، و الثانية حية بين دروب الحياة، فاعلة في عقول الأفراد وتجمعاتهم... الشجرة الثانية لها فروع لا

تستطيع الأولى تدوينها أو ضمّها... ربما إقصاء لها و اكتفاء. و طبعا النظام الأبيسي يعترف بتناسل الذكر من الفروع لا بالأنثى. سيكون الاستثناء في منطلق الجذع. أما الجذور فتلك حكاية أخرى أوسع دائرة و إخفاء لغابة من الأشجار ليس الوقت مناسبا للسفر داخل أجمتها. تذكّر أن ابنته رانيا تريده هذا المساء بعد عودتها من العمل في بداية هذا الأسبوع الثاني من شهر يناير لموضوع مهم. أبعد الاحتمالات السَّلْبية، فهو يضع كل ثقته في ابنته التي صاحبها أكثر مما شكّل لها أبا ذا سلطة و نفوذ... كان عليه أن يتخلّص من اشتغاله على هذا المصطلح، لكنه سرعان ما أُخِذ إلى رحلة مكالمة هاتفية ولّدها التواصل الاجتماعي على صفحة الفايسبوك. و كان المتصل هو صديقه في كلية الحقوق والاقتصاد السيد منير قنديل. تبادلا التحية و السلام وعتاب الغياب و عدم اللقاء. دخل السيد منير مباشرة في حواره حول المصطلح:

ـ سي فحص، أثرت نقاشا على صفحة الفايس حول كلمة المزاوگة، و لم أرِدْ أن أرُد على بعض التدخلات التي قرأتها هناك احتياطا حتى لا أُفْهَم بأنني أقصي رأي الآخر أو أُخَطِّئه... و أنت تعلمُ بأنني لا أطيق الإطالة في الحضور في هذه الشبكات كما لا أستطيع أن أكتب فيها بردود و إجابات... ها أنت أتحتَ لنا فرصة المكالمة الهاتفية ونحمد الله على أنك بألف خير.

ـ شكرا سي منير... هي المشاغل تُبعد بيننا في اليومي الذي لا ينتهي...

ـ رجوعا إلى موضوع المزاوگة سي فحص، نجد في العلوم السياسية المُدخل والمُخرج. في آليات المُدخلات في النظام السياسي المغربي نجد من بين المُدخلات المزاوگة. هي بنية سياسية وقعت في عهد الزوايا، و هي آلية من آليات التحكيم الروحي، وعلاقتها بالقصر الملكي. مثلا سنة 2006 جاءت جماعة إلى ضريح مولاي إدريس الذي بدا لي من خلال

مناقشتك في الفايس على أنك تشتغل عليه في هذا الموضوع، و طلبتْ أو قامت بالمزاوگة، في إطار إرجاع الحق و مطالبة القصر بالدخول و التحكيم في هذا الإطار. المزاوگة هي مفهوم التحكيم الروحي بمعناها السياسي الدقيق. يلجأ الناس للضريح لكي يتدخل السلطان. باعتبار أن الملك سلطة روحية فإنه يتدخل في هذا الإطار. والتحكيم ما يزال يتطور ليصبح تحكيما قانونيا بعد أن تطوّر عرفيا. مثلا عندما تختلف الأحزاب السياسية الآن، تلجأ إلى السلطة العليا في إطار التحكيم السياسي للسلطة بمفهومها الدستوري. إذا لاحظت هذه الأيام كيف ذهبت لتقديم الشكاية من هيمنة حزب معين وإقصائه لها في التشاور أو في الاعتبار لحضورها ديمقراطيا كمعارضة...

ـ أستاذي العزيز، أنظر إليها من زاوية اجتماعية و أنثروبولوجية دينية.. المزاوگة، والشفاعة كصورة لها. فرغم الجرم المرتكب يتم طلب العفو و التطهير الديني ورفع العقوبة... قد نجد في الغرب مثلا كتابة رسالة إلى رئيس الجمهورية لكي يعفو.. رسالة عمر الرداد إذا تذكرت معي ذلك...

ـ سي فحص، هناك سلطة روحية للسلطان هو الذي يسمح أو لا يسمح. الفصل 19 من الدستور القديم أو 21 من الجديد (لا تنتهك حرمته)... تجعل له سلطة التحكيم السياسي والديني... و هناك سلطة دينية على الزوايا تجعل السلطان هو الذي يقبل أو لا يقبل أي مزاوگة.. ترتبط المزاوگة بإرجاع الحق. و لو سمح السلطان يتم تعويض أهل الطرف الآخر الضحية... لقد تطور المفهوم إلى أن صيغ مفهوم التحكيم.

ـ يبدو أن المفهوم له طابع ديني.. هناك حرم مكاني يلجأ له (المزاوگ) لا يخرج عنه... وهذا ما أشتغل عليه مع قصة شخص قتل ابن قايد في منطقة و زاوگ في حرم ضريح في منطقة أخرى... فرق مهم موجود في هذه الوضعية و هو أن القاتل له شجرة انتماء كشريف

ويستفيد من ظهير شريف في الرعاية و الوقف عليه من أموال الأحباس والأوقاف كما تعلم في استفادة الشرفاء من ريع ديني و تاريخي...

ـ كنت أريد أستاذي أن أشير إلى الفرق بين الحكم و التحكيم... فالمزاوگة هنا تحكيم وليس حكما. و هذه مسألة مهمة جدا... الحكم يدخل في السلطة الأبوية، سلطة الفرد والتحكيم يطلب الوسيط.

ـ تعلم سي منير أن وظيفة هذا المفهوم قديمة و موجودة قبل الإسلام عند قبائل شبه الجزيرة العربية...

ـ وفي صعيد مصر كذلك... لقد تطور من عند ممارسة العشيرة له ثم القبيلة ثم الزاوية فالدولة الآن... و ماذا أقول لك سي فحص؟ إنك عزيز عليّ كثيرا و عزيز عليّ أن أناقش معك مثل هذه المواضيع... بالأمس استحضرناك أنا و سي عبدالحق المومني... يعزّك كثير. يحبك ذلك الإنسان، و الله العظيم...

ـ المحبة في القلب متبادلة سي منير... كلكم في القلب.

ـ حيّاك الله سي فحص. إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء.

-★★

ينتهي عمل رانيا في الغالب مع الساعة السادسة و النصف مساء. منذ بدأت اشتغالها داخل فضاء هذه المؤسسة الأخطبوطية الضخمة بالمقارنة مع شركة اتصالات المغرب التي قضت فيها فترة تدريب، استطاعت أن تفهم و تقارن وتستنتج... الحيوية التي طبعت شخصيتها منذ صغرها و طفولتها، و هي متدرجة عبر مسالك التعلم ثم التخصص ثم التكوين التأهيلي في مدرسة عليا للإعلام وهندسة التدبير والاستثمار، بقيت مستمرة معها و في عملها و هي داخل أحد أجنحة المركب الكبير للأوفشورين... نملة دؤوبة في حيوية يومية والتزام عملي واحترام للوقت و للمهام و تحديد للمسؤولية... كلها مبادئ لم تبق مجرد تعلمات من أجل النجاح و نيل الشهادات، بل إنها عرفت رسم شخصية رانيا ونيلها احتراما أكثر وأكبر داخل وسط عملها و بين مسؤوليها و أسرتها المهنية...

إنما من يرى رانيا خلال السنتين اللتين قضتهما في هذا المركب شبه الفضائي ـ كما تحب أن تسميه في بعض الأحيان ـ لن يخطر له على باله بأنها مأخوذة بالعمل ومُبتَلَعة داخله وداخل زوابعه... تحاول ما أمكن أن تكون دقيقة في كل شيء. تقيس المسافات الزمنية وتشحنها بالحيوية المناسبة و الشعور المناسب. و كأنها شجرة ضخمة تقتطع من جذعها كل مرة القطعة المناسبة لأجل إيقاد دفء الحرارة و الحميمية في العلاقات الاجتماعية المتنوعة. فداخل منزلها تحترم أوقات المساء ومائدة العشاء، و خلال نهاية الأسبوع يكون لها موعد مع الأسرة في نزهة أو دعوة لمطعم أو سفر لإيفران أو مراكش أو طنجة أو غيرها من مدن البلاد... وحينما وافقت على الخطوبة، كان الجل يظن على أنها خطوبة تقليدية بين أسر متجانسة ومتعارفة، لكنها حاولت ألا تترك للصدفة فرصة اختراق المرغوب فيه بجهل مساره ومصيره... هكذا وبمجرد ما ألمح لها خطيبها بالموضوع كانت رانيا متخذة لسياسة

واقعية تستبق الأحداث وتحاول أن تمشي بها إلى السكة التي تناسبها وتوافقها... بادرت إلى مزيد من اللقاءات والخرجات و الجلسات... مزيد من المناقشات و التعرف على الطباع واكتشاف الجميل منها في الآخر... قارنت و سألت وتجرأت و جرّبت، فكان الاقتناع النسبي بمشروع الخطوبة والزواج... تحضيرها ودراستها للمشروع أشبه بتحضيرها لدراسة مشاريعها التعليمية أو المهنية... لا تريد أن تطرح السؤال على نفسها كما يطرحه عليها بعض محيطها: هل كل شيء عندك ميكانيكي و يخضع لمنطق معايير محددة ومبرمجة؟

لا تجيب. كما أنها لا تحب أن تميز بين هذه الطريق و تلك في حياتها. الكل طريق واحدة، الهدف فيها النجاح بدقة متناهية و باميتاز. فلسفة أخذت تتعمق في السلوك اليومي لتصبح اعتيادا شاقا لا يقدر عليه أي واحد. لكن رانيا بفضل إرادتها القوية التي تمتلكها غالبا ما تحقق معها و بها أمنياتها على حساب صحتها أو نومها و راحتها، إذ أنها قد تنهار بعض الأحيان فتحتاج إلى راحة تتدخل فيها الأدوية والمسكنات لكي تعطي انتعاشة مقوية للاستمرار في جهد التحدي أو تحدي الجهد... و كم نبّهها الأطباء لمسار كل هذا. دعوها إلى الاعتناء بصحتها وبحصص نومها و رياضتها المعتدلة بحكم الجهد المهني الذي ولجته في الأوفشورين... لكن الطائر انطلق مع اتجاه الريح التي قد تكون عاصفة و لا يدري أين ستقوده. حتى أمها شادية كانت تلومها على ذلك الإجهاد والعناد. تشبّهُها بأبيها: مثلك مثل باباك، تعاندان الزمن بالعمل بدل الراحة رغم الضرورة...

كل هذه الملاحظات قد يحضر بعضها أو جلها عند فحص الخالدي. قد يبحث عن وسيلة للتخفيف من ضغط شروط الحياة الجديدة. لكن الأهم عنده هو هذا النجاح والتألق لفتاته التي سيتغير النظر لها بمجرد أن يسمع مقترحها الجديد الذي دبّرت له منذ ستة

أشهر تقريبا، و لم تُخبِرْه به إلا في هذه الجلسة المسائية التي اختارتْها مع أبيها قبل أن تجلس مع أمها... توازنات رأت ترتيبها تفاديا للعقبات أو الصدمات التي يمكنها أن تسببها..
غريب أمر هذا الجيل، فأن يصبح الكبار أمامه مثل أطفال صغار، غير قادرين على التحول أو الافتراق، فهذا ما جعل صدمة الإخبار تدهش السيد فحص الخالدي فاحتاج معها إلى مزيد من الوقت للتفكير و المناقشة مع تأجيل القرار ما أمكن.
جلسة هذا المساء من 12 يناير 2015، جعلت طفلا صغيرا فعلا يستيقظ من نومته السديمية في فؤاد السيد فحص. تحوّلت نظرته من رؤية العقل إلى رؤية الوجدان. ربما غلبت هذه على تلك. بدأ يرى بها و معها بنته رانيا برؤية شاعرية يبحث خلالها عن اكتشاف هذا المخلوق الأنثوي الذي أثث نور كونه و حياته: رانيا.

-★★

تتجاور العقول فتكون مثل خلايا متفاعلة. يحاول بعضها أن يتجانس ويتشاكل مع الآخر. عمليات تأثير و تأثر أكيد. لكن اختيار رانيا وموافقتها على إقامة مشروع زواج مع سعد الماجدي، اسم بصم مدينة الرباط بتاريخ العائلة و نبوغ أهلها أو جلهم في التجارة والدراسة والعلم و المناصب، جاء بقوة الحاجة إلى تحقيق الجديد عندهما هما الإثنين رانيا و سعد.
سيعود السيد فحص الخالدي لمراجعة هذا التوافق و الاتفاق، لكنه الآن و بعد جلسته المطولة التي أجّل قراراتها و الرأي فيها إلى وقت آخر مناسب، سيختلي لنفسه كطفل صغير فقد لعبته. ربما كانت لعبته هي رانيا، جوهرة حياته و سرّ وجوده و سبب الاستمرار فيه. هكذا باغته هذا الشعور فكان أقوى. رآها أنثى و قد كبُرت. أصبحت

برشاقة و قوام متكامل. جمعت بين جمال جداتها و جمال أمها شادية. أمّا عيناها فهما فاتنتان بسحر جدتها (أمّي يسّة) و التي لم يُشِرْ لذكرها و لأثرها بعدُ.

ربما العمل سيكون هو سبب نحافة جسمها، لكن ذلك لم يؤثر على حيويتها و رغبتها في الحياة و السفر و الاكتشاف و البحث عن المتعة. أكيد أن الوتيرة التي ذهبت بها أمور الحياة عندها كانت سريعة و متتابعة. التفوق في الدراسة و ولوج أحسن المعاهد العليا والعمل بأفضل المؤسسات التدبيرية و المعلوماتية. التوازن بين هذا العمل وممارسة الرياضات و الفنون المختلفة. هي عازفة الكمان التي قد تأخذ السامع بتوزيعاتها العذبة فلا تقبل منك كجمهور إلا أن تكون تلميذا نجيبا جالسا القرفصاء و فاتحا فاك لكي تسافر مع أوتار الكمان في عوالم ألحان عالمية. و حيث يكون الكمان مراقصا لشعرها الأشهب المنسدل رقة على الكتف المقابل لآلة العزف، يكون المشهد لثلاثة أيقونات لابد لك أن تندهش وتغرم بلوحتها الجامعة كوريغرافيا للجمال.

أي فقد سيشعر به السيد فحص أكثر من التهديد بابتعاد ابنته عنه؟ وماذا عن أمها شادية؟ كيف ستتقبّل الأمر؟ لو أنه فقط أنجب أولادا آخرين. و لو أنه فقط أنجب ابنا وكان هذا الابن هو الذي يرغب في السفر و الهجرة خارج البلاد، لكان شعوره كأب وكذكر مع ذكر أخفّ. ستكون حينئذ الأمور بمنطقها الفطري و الذكوري. لكن فؤاد قلبه هو هواء تنفسّه اليومي. أدرك أنه كان له حضور أساسي في كل حين. لابد له أن يراها ويسمع صوتها و كمانها. لابد له أن يجلس في زاوية من أريكة و صالون أو حديقة لكي ينظر إلى أيقونته متحركة أمامه أو جالسة. ليس كأثاث أو طاووس متشكّل بألوان الفسيفساء أو اللوحات المعلقة على جدران. قلبُه يقول لا لهذا التصور و التخيّل. فؤادها الذي يراقص الحياة فيرجع له السعادة انتعاشا و تنفسا. حضرتْه هذه الألفاظ بتاريخيتها

وقيمتها الحياتية. كلمة الفؤاد وكلمة التنفس. عند الناس هما عنصران داخليان، لكنهما عنده الآن يهدّدانه بالانفصال عن ذاته و التواجد بعيدا عن ذاته.

يرفض هذا الشعور. يلامس سطح يده اليسرى بكف يده اليمنى. يستحضر حضانة إحداهما للأخرى، يدحرجهما في محاورة حسية وذهنية خفية. هما فؤاده و رائيته.

لكن، من كان منهما صاحب هذه الفكرة الجهنمية؟ قد يقبلها السيد فحص مناقشة من أجل مَنطقة الأمور. يسمع عنها كثيرا، بل إنه يعاين حالات انخرطت في بحر الهجرة إلى هناك. لكن هذه ليست بهجرة اضطرارية لكسب كسرة خبز بثقافتنا المغريبة. هذه هجرة عقول وأفئدة. هجرة أيقونة تغمر قلب أبيها و لا يتصور يوما أنه سيعيش بدون عطرها وطيفها. لو أنه استطاع مناقشة سعد الماجدي في الأمر وإقناعه بعكس ما يخططان له. لكِن تربيته لابنته تمنعه من ذلك. مناخ و ثقافة حرية كانا أساسيين لنمو هذه الشجرة أو قضيب الخيزران الذي يتربّع على عرش مواصفات الجمال و حدائق جنانه. من يهدّد هذه العائلة التي أسّسها. أمس كانت جدتها و قد تربّصت بها عيون الذئاب. الآن ها هي ظروف العيش الثقافي و المهني و العلمي تفرض عليها الانتقال وهجرة المكان.

يستغرب لنفسه كيف أصبح يفكر بمنطق يجترّه مع تاريخ عائلة زوجته شادية سليمان. تراه يسائل نفسه كيف لهذا الاشتغال حول هذا البحث قد أصبح جامعيا و أكاديميا بحكم مادة البحث التي وفّرها والجذاذات و المستندات التي اعتمد عليها.. و فجأة يتذكر أنه غيّب تاريخه الشخصي المتعلق بعائلته و قبيلته و منطقته. يعاود نفس الفعل و التساؤل: تُراه يريد مصالحة تاريخه الشخصي؟ و هو الذي تشرنق مع ثقافة حداثية في العيش جعل معها الأمور منطقية في الفصل بين عاطفة التساكن مع ثقافة تقليدية و ثقافة متحررة بقيم عيشها و تربيتها ونظرتها للعلاقة بين أفراد الأسرة بذكورها و إناثها. فصْلٌ أراده لمجتمعه

كذلك في أن يُخْرِجَه من كل مواصفات الحياة القروسطية و علاقاتها والثقافات المنتجة لها تعطيلا لتطور و تقدم الناس، و هو يعلم أن ذلك سيكون على حساب تضحية بالنفس والمشاعر و العادات والتقاليد التي تكبّل هذه الذات.

لم يترك حيزا أو فرصة لتوتر حياته بأفكار تقليدية اعتبرها بالية. رفض إشارات الطلاق من شادية التي لم تنجب له سوى رانيا. رفض فكرة الزواج من ثانية تأتي له بالأولاد الذكور وهو الذي وقّع عريضة المليون توقيع في بداية تسعينيات القرن العشرين ضد تعدد الزوجات. لكنه الآن يشعر بأن فوهة باب مظلمة تنفتح في ذهنه، يكشّر فيها ذئب بأنيابه سخريةً من عقليته و ثقافته و طريقة تفكيره. ذئب واقف وراء الباب يهدده بهدم كل ما بناه و بافتراس كل أمانيه المنتظرة.

سيكون الشاريوه هو المركب الذي سيستبق به الحكاية و يبحث من خلاله و به عن شاطئ أمان يفسر له ما سيجري و يطمئنه على الآت. لم يفكّر في صلاة رغم عبورها مخياله. لم يرِدْ أن ينافق نفسه فيجعل إيمانه الذي يسكن قلبه نفعيا وحاضرا في حالات ضعفه. إيمان ثقافي كما وقّع على وصفه عنده صديقه المحلل النفساني حدو الربيعي. هذا الايمان الذي ربما سيكون حاضرا هناك، في تلك الدائرة من الخريطة التي ستعبر لها تحليقا: رانيا.

ترى، هل لعبة الدوائر التي يسطرها فوق الخرائط قد أخذته في قدرية جديدة لم يفكر فيها البتة. دوائر تهكمت من ذاته المهندسة أولا، فزوبعته داخل عواصفها الطبيعية.

في مونولوغ تراقصت معه قطع الثلج المنكسرة في حوض البراندي خاطب نفسه:

ـ و لماذا لا تسافر أنت كذلك و تتخذ لك مملكة جديدة لأحلامك؟

(la raison de vivre)، هذه العبارة نطقها بالفرنسية و اعتبرها لاشعوريا الفاصلة بين مشاعره و دواخل وجدانه، في حيرته الجديدة.

ـ لماذا سأعيش أو لماذا أعيش؟ كنت أتلاعب بالماضي في مناهج تحليل و مقاربات تأويل. ها هو الزمن يتلاعب بي في الآتي داخل مستقبل و غد مجهول. أن أقبل الأمر الواقع في هذا السن و هذه المرحلة العمرية. حرام عليك رانيا. لا تكوني قاسية على هذا القلب الذي يحبك هواء لرئتيه و جوهرة لفؤاده و ألوانا لكونه.

بين إطار نظارتيه و جفن عينه اليسرى جمة القلب، انسكبت دمعة متثاقلة و حامية لتستقر في الكأس الذي ارتجفت يده اليسرى في محادثته. ثلاثتهم في مناجاة.

-★★

يتأمل فحص الخالدي إطار النافذة و ممر الشرفة المؤدي إلى جنبات الحديقة. سها بعينيه عن اللون الأرجواني الداكن الذي يكسو أوراق شجرة البونسيانا فيوقع على خضرة الأوراق الملتحفة. كانت الرؤية ضبابا ذهنيا يغلّف أفكاره و الحواس منتظرة تصحيح وجودها ووظيفتها. كيف سيتصالح مع رومانسية الألوان و أرجوانية لحظتها؟

الصمت داخلي بشكل كبير، لا مرسلات خارجية توقع على وتر النفس. وهذا المحارب في استراحة الإسكندر الأكبر. رجله اليسرى ممدودة و اليمنى مثنية يتكئ عليها بمرفقه. أما رأسه فبين رفع و خفض في لقطة شحوب غير معبر عن معنى، غارق في تيه لا فكرة تراقص مرآته السديمية. تحركت بالخارج ريح عابرة و تحركت معها أغصان البونسيانا، وكأنها تطرق لألآت عينيه. كأنها تقول له: أنا معشوقتك الإفريقية و سفيرة القارات في حديقتك و ملهمة أفكارك و كتاباتك. يرفع عينيه لها و يحاول أن يجيب. لا أصوات مسموعة، إنما هي الأفكار تتهاوى كأوراق الخريف، رغم أننا في فصل شتاء. لا يعلم من يخترق الآخر، هو أم الصورة أمامه. هذه الصورة الحية والمتحركة داخل إطار النافذة.

يفاجئه صوت رنة داخلي. أهي رنة أم طنة؟ إنها قوية فعلا. ببريق لامع ينعكس داخل ذهنه رقم خمسة و خمسين. رقمه العددي في هذا الوجود. أقواس الاستفهام تتلاعب بمدى بصره، و ذاك الطنين يسخر من صدى أصواته المنفلتة داخليا دائما. كم تبقى لك لتعيشه يا فحص؟ 55 سنة؟ و ماذا بعد؟ تجيبه البونسيانا بحفيفها الهامس. لا لغة في الوجود غير لغة الدوام. عمر الأشجار يسخر من عمر الإنسان. جذروها في عمق الأرض وفروعها تعانق السماء. أي خلود يغتر به الإنسان إذا كانت الشجرة تستطيع العيش لقرون و قرون؟

رأى نفسه ضعيفة و مشلولة أمام هذه التي تحاكيه أسئلة. كيف يستطيع ان ينتميَ إلى قوتها و قوة العظماء الذين تحدّوا جميع أشكال الضعف و الزوابع الجارفة؟

ساءل نفسه:

ـ هل يمكن أن تكون الجنة بدون طبيعة؟ و ما دامت الجنة خلايا الوجود في كل كائن وموجود، فهل هناك حياة بدون خلايا؟

عبّس بطريقة الحائر في فكرته و المتردد في صياغتها. راود نسفه:

ـ وقت تفلسف هذا أم وقت مناجاة؟

لا يعلم جوابا. لم يألف صدّ ما لا يحبه من أفكار أو اقتراحات بالعنف و القوة، خصوصا في علاقاته الأسرية. عقدان و نصف من الحياة الزوجية و التربية. مُدّةٌ مرّت في أجواء هادئة إلا من شغب جميل للأفكار و بعض صراع أنانيات يصبغ طَعم الزواج بملوحة جديدة. فكم من الاحتمالات أمامه لمعالجة الموضوع؟ تدعوه البونسيانا لزيارة ديارها الأصلية، لتبليغ السلام لأصولها الأولى. يبستم لخواطره الأخيرة. ينظر إلى المكتب ورفوف الكتب وعلاّقة المعطف و إطارات اللوحات والصور و إلى كرسيّه الذي يعترشه... نظرة غرائبية استفهمت معها الأشياء الحاضرة في الغرفة. ماذا يريد منها؟ يطمئنها بنَفَسٍ متحسّر. يُرْجع اللوم على الإنسان. هذا الذي اقتطع و جزّ و اقتلع و صنع من الشجرة خشبا و حطبا.

هل كان فحص الخالدي في حاجة إلى مثل هذه المرافعات الوجودية؟ يثني رجله اليسرى مريحا لها من تمدد و يضع مرفقه فوق فخذها لكي يغطس بكامل وجهه داخل صفحتي يديه باحثا عن سكون:

ـ لا يمكنني أن أكون شجرة. لا أستطيع البقاء هنا ثابتا و سماء هوائي و تنفسي مترحّلة عبر محيط و قارات. لكنني لن أستبق الأحداث. لابد من تحكيم عقل و منطق جدّيين.

تطرق شادية باب المكتب. هديتها له في هذا الليل الهادئ و الناعم إلا من رطوبة باردة في الخارج، براد شاي باللويزة تنعش الشرايين و تريح الجهاز العصبي.

ـ أردتك أن تشاركني هذا الكأس من الشاي. تعب اليوم يزول معه.

ـ عندك حق في ذلك. أنا كذلك في حاجة إليه. ما رأيك أن نشربه في غرفة نومنا أفضل.

تشرق ابتسامة عريضة على محيّاها و تحبذ الفكرة.

ـ و الله العظيم سيكون أفضل. في طقس مثل هذا من الأحسن أن يهيئ الإنسان نومه متسلحا بكتاب أو متابعا لفيلم داخل سريره الدافئ.

فكّر في التطرّق لموضوع رانيا لكنه أجّل ذلك إلى وقت مناسب آخر. ربما سيقترح على شادية الذهاب نهاية الأسبوع إلى مدينة إيفران، سيكون أفضل لمناقشة الموضوع.

-★★

كانت الوجهة التي اختارها السيد فحص لرحلة نهاية الأسبوع هي مدينة الجديدة. أراد لشادية معانقة آفاق المحيط الأطلسي بدل مرتفعات الأطلس المتوسط. هو البحر الذي سيجعل العقل ينبسط ويتمدد بخلايا جهازه العصبي لكي يفكر بشكل أفضل و لكي يتقبّل الجديد بدون ارتداد أو رجع صادم. خصوصا وأنه يريد أن يفاتح شادية في موضوع هجرة رانيا إلى الديار الكندية.

هنا، يقف بجانب رفيقة عمره متأملا التاريخ الذي ابتلعه البحر بأمواجه الخادعة. توهمك بأنها لافظة أو آتية بالقادم أو المرسل، بينما هي تجتر وتبتلع إلى جوف المجهول ما تشاء. قد تعطيك جوابا إشارة و قد تصمت في هديرها متبرّئة من فعلها. أطلال المدينة التاريخية الممتدة بأسوارها البرتغالية (مازغان) شاهدة على قرون ولّت بأحداث كبيرة شكلت المجتمع المغربي بخليط أجناس حتى إنه لم يعد جنسا واحدا، فقط هوية مغربية أنتجتها الجغرافيا. قد يجيب أصدقاءه حول تاريخ المدينة فيقول إنها لا تاريخ لها. لكنه يريد بذلك العكس، لأن تاريخها لا حلول له محليا. طبعا من وجهة نظره التاريخية التي لم تكتمل أجوبتها.

المهدومة، اسمها الفارغ من الحياة. ذلك أن المغاربة حينما استطاعوا بعد حوالي 267 سنة من الاحتلال البرتغالي أن يحرروها و إن كانوا همُ الذين بنوها، فقد منعوا أنفسهم من تعميرها لكل هذه المدة، خصوصا و أن البرتغاليين قد هدموا جل مرافقها بالقنابل قبل تركها. كانت تسميتها (مازاغان) و التي جعلها البرتغاليون و من أتى بعدهم مشتقة من إمازيغن بمعنى الأمازيغ. مثلما ان مدينة ازمور المجاورة تسميتها أمازيغية و تعني الزيتون البري غير المنتج...

نوارس المحيط التي تقف على أسوارها العالية لا تجيبه و لا تبوح له بالسر. لكن سرّ امتناع السيد فحص من قضاء نهاية الأسبوع بالمنتجع السياحي الكبير (مازاغان) والذي شُيّد على بُعد كيلومترات من مدينة الجديدة كأجمل فضاء سياحي عصري و رفيع، لم تدرك له شادية سرّا أو معنى. اكتفى بالرد عليها بأنه يريد إقامة قريبة من مرافق المدينة وحيويتها اليومية، خصوصا و أن الفصل الشتوي لا يعرف ازدحاما فيها من طرف الزائرين لشواطئها الطويلة.

مازاغان عند السيد فحص هي القصبة التاريخية و ليس المنطقة السياحية. لذلك اختارا التجوال داخل معطفيهما و مقاومة رذاذ الأمواج و الضباب النازل كتلا بيضاء من السماء في جوٍّ لم يتحرر من رقصته الهوائية عليلة الرياح، و التي وهبته دفئا خلال هذا السبت. دفء أبعدَ برودة الرطوبة المحتملة المجيء كل حين إذا ما انقشع هذا الضباب القطني الناعم، تلك العبارة التي مازح بها فحص الخالدي زوجتَه شادية قولا و وصفا. هذه التي التزمت صمتا جميلا يداعب بابتساماته الحبر و السماء، و تتابع شرْح زوجها و رفيقها فحص في هذه الرحلة. ما تزال عطشى لمزيد تحليل يُجَمّع لها المعلومات.

ـ من هنا استطاع المغاربة أن يشاركوا في التجارة الثلاثية و أن يساهموا في تعمير القارة البعيدة هناك، أمريكا اليوم. حتى إن أحد المشاركين في غزو أمريكا و من الذين دوّنوا تاريخ رحلات البرتغال إلى هناك، كان مغربيا بحكم تسميته و روايته. كم من مغربي تم سبيه وتهجيره عاملا أو بيعه إلى تجار العبيد و نقله عبر السفن إلى هناك. البحر أمامكم والبر من ورائكم. هذا البر الذي مزج القبائل و جعلها تنتقل بين الأمازيغية و العربية. فكم منها تحوّل من النطق بالعربية إلى الأمازيغية و العكس كذلك. تعلمين شادية، لقد أقيمت ندوة حول الموضوع السنة الماضية. لم أحضرها بحكم التزامات عديدة، لكن مضمونها تناول

رحلة مصطفى الأزموري أو (إستيبانيكو) ـ هذا اللقب الذي عُرِف واشتهر به -. أُسِر من قبل البرتغاليين في بلدته أزمور سنة 1520 م، و اقتيد إلى إسبانيا، فوجد نفسه بعد سنوات ضمن رحلة استكشاف باتجاه القارة البعيدة و المجهولة آنذاك. من بين 600 شخص نجا من عاصفة هوجاء أربعة أشخاص من ضمنهم الأزموري مصطفى. أسرهم الهنود و تعرفوا خلال ذلك على مناطق وقبائل داخل شريط مغامرات مثير جدا...

تجيبه شادية باتكائها على ذراعه و التحافها بحميمية الالتصاق به انتعاشا من قشعريرة يرسلها البحر مدا و جزرا في الهواء قبل الماء. و هي تردّ صيحاته المبللة بنظارتيها، تضغط على ساعد زوجها طلبا لزيادة حكي كان السيد فحص بطلَه بامتياز. طبعا لعبتهما التي اختاراها لمدينة الجديدة أو لهذا المساء على الأقل. لكن زيارة خزان الماء البرتغالي أو (المطفية) بتسمية أهل المدينة، جعلها تتوسّله للعودة إلى مقر إقامتهما. سيكون تناول وجبة العشاء في مطعم أنيق مزيّن بضوء الشموع عودة حنين إلى الأيام الأولى للزواج. وسيكون الشعور المتجدد لشوق اللقاءات الأولى و الرغبات الأولى.

بعد الانتهاء قادهما الحديث كما المناقشة إلى مواضيع شتى. في بدلتها الحمراء وطيف هيأتها المتموج مع الأنوار الخافتة، كانت عيناها شمسا بالنسبة لفحص، والشموع نجوم تتوزع بين جنبات المكان و فوق الطاولات. في هذا الجو الرومانسي كذلك، لم يرد السيد فحص طرح الموضوع احتراما لمناخ الدفء الوجداني الذي ناسخ بين روحيهما أكثر فأكثر. سيكون حديثه عن المغاربة الذين اختاروا العيش ببلدان غربية و جعلوا مجيئهم إلى بلادهم في العطل والمناسبات، عن الفرنسيين الذين يختارون العيش بعد التقاعد ببلد المغرب. يتعمّق مع شادية في التحليل و يستعين بالجانب النفسي في تفسير الظاهرة. يتساءل:

ـ كيف يستطيع الإنسان أن يشعر بهذا الأمان و هذا الانتماء للكل في الواحد؟ يعتبرون العالم فضاء للعيش. لا حدود للغة و لا للثقافة و لا ظروف العيش الهانئ ما دامت شروط كل هذا تتحقق حيث تتوافق مع رغبات و متطلبات الفرد. صحيح أن الشعور بالراحة الوجدانية هو طاقة روحية و ثقافية ترتبط بالمكان كذلك، إنما، ما الذي يفسر استعداد هذا الفرد الغربي للتعايش مع أي زمان و مكان؟

ـ الجانب المادي أظن. و لا ننسى الثقافة الفردانية والانسلاخ عن هويات ماضوية.

ـ أكيد شادية، كلامك صحيح. و لكن كيف نستطيع نحن أن نكون مثلهم؟

ـ بالنسبة لي لا يمكن ذلك. كما تعلم ارتباطنا بالحياة في الحاضر مرهون بشروط الماضي وحمولته.

ـ لا تنسيْ الشجرة كذلك التي أعَدْتِ خدمة فروعها و أغصانها بالبحث و التنقيب، والتي كان هذا العبد المذنب أمامك هو المشتغل بأجرة حب من أجل إحياء استنطاقها.

ـ أين هي لوحاتي من الشوكولاته؟

ـ أين هي مدني التاريخية التي وعدتني بتشكيلها؟

ـ و هل قالوا لك إنني مخرجة سينمائية و مشتغلة على الأبعاد الثلاثية في التصوير والإخراج؟ أنا الطالبة في مقام مدرجاتك العلمية والتاريخية. منِّيَ التلقّي و منك الإرسال.

ـ هه. جميل هذا السفر. و ما هو جميل يا شادية هو حضور روح التحدي الدرامي والتاريخي في نطق الشجرة. انظري إلى شجرة البونسيانا في حديقتنا كيف هي هادئة وناعمة بجمال ألوانها البسيطة رغم إتياننا بها من مكان بعيد. شجرتكم كذلك، قدرها أن تهب الحياة لأماكن جديدة، لا أن تهبها الحياة هذه الأماكن.

ـ لم أفهم الفكرة بشكل واضح.

ـ ماذا لو اخترنا الانتقال للعيش في بلد آخر أو مدينة أخرى؟

ـ فكرة مفاجئة و غريبة. لكن ما يهمني هو أن أكون بجانبكما أنت ورانيا. رغم أنني أشعر بمضايقة هذه الفكرة لاحتمالات الذهن. ألا ترى أننا ننعم باستقرار مناسب خصوصا مع المرحلة العمرية؟

ـ إنه افتراض فقط. ربما إذا قمنا بالانتقال و السفر إلى بلاد أخرى في تجربة جديدة، سيكون شيئا مثيرا و ليسا مزعجا. تعلمين شادية، أرى في انعكاس ضوء الشموع شمسا تسطع من عينيك. و أنت داخل هذا الفستان الأحمر، و داخل هذا الفضاء الذي يريد أن يكون مجرة أنت شمسها الآن، الكل لك و منك.

ـ انتقلت إلى شاعرية جميلة. مرة ترعبني بأفكارك فأقول إنك مسكون بفضاء مدينة الجديدة وأزمور، و مرة تثيرني بسحر الكلام فأظنّك توقع بي في شباك المجهول. إنما ما بيدي حيلة. لولا الحب ما كانت هناك ثقة. قدري في قلبك مرهون.

ـ لقد صنعنا جملتين شعريتين على الأقل في هذا الحوار الرومانسي الجميل. واحدة مني والأخرى من عندك. تعلمين، أفكر في عقد عمل ودراسة ببلد آخر. ربما كندا.

ـ و الرباط؟

ـ لا مشكلة. منذ استفادتي من المغادرة الطوعية، ها أنا أعمل من جديد مع الكلية بفضل عقد عمل اختياري و متجدد. يمكنني العمل هنا و هناك، بحسب الالتزامات التي سأحددها.

ـ لو بقيت ملتزما بالعمل الرسمي ما راودتك مثل هذه الأفكار. أنا أبحث عن شجرة لإحيائها وأنت تبحث عن غابة جديدة لا ندري كيف سيكون عيشنا فيها؟

ـ لا تخافي عزيزتي، العالم أصبح قرية صغيرة و مناسبة للعيش والتعايش، خصوصا في أماكن محددة منها المغرب مثلا.

ـ و لِمَ لا نبقى بالمغرب؟

ـ نحتاج إلى تجربة جديدة. لم أبحث بعد في هذا الموضوع، و لكنها ستكون جميلة. تجارب أصدقاء كانت مميزة خصوصا و أن جانب البحث العلمي هناك جد محفّز. و هنا قوس مقارنة طويل طبعا.

ـ ماذا عن رانيا؟ كيف سترى ابتعادنا عنها و هي مقبلة على زواج؟

ـ لِمَ لا نأخذها معنا؟

ـ و زوجها المستقبلي؟

ـ هما الاثنان. شهاداتهما تساعدانهما على أفضل الاختيارات هناك.

ـ و الله أفكارك أصبحت غريبة. إذا أردت أن نسافر سياحة هناك أنا موافقة. أما هذا الانتقال فسيكون ثقيلا على قلبي أولا.

ـ هذه اقتراحات. يمكننا تدبر أفكار أخرى. ها نحن استفدنا من رحلة إلى مصر، وإلى وجدة...

تضحك شادية حتى إن ضوء الشمعة تَرَاقَصَ مع دبدبات صوتها الذي حرّك جسدها اهتزازا خفيفا، فكان مشهدا تخيّله فحص لوحة لرقصة غجرية رومانسية. لم يتردّد في طلب هامس من مسير المطعم تشغيل موسيقى سمعها حين دخوله إلى بهو هذا الفضاء.

ـ هي لمجموعة (جيبسي كينغ) سيدي. لكم ذلك، و أتمنى أن تكون وجباتنا قد راقتكم.

ـ الحساء و هذه الشريحة من السمك لذيذتان جدا. نشكركم على كل شيء، و لا أنسى الموسيقى كذلك.

ـ العفو أستاذي... ما الذي تودانه كتحلية؟ كعكة فواكه أو شيء آخر؟

يلتفت السيد فحص إلى شادية التي تؤكد على الاختيار الأول. يساندها زوجها في نفس الطلب و الاختيار.

ـ شكرا جزيلا لك سيدي.

-★★

يعود السيد فحص الخالدي إلى استجماع ما ناقشه مع بنته رانيا حول وضع عملها الحالي. لقد استطاعت أن تقنعه نسبيا بمبرراتها المهنية دون الشخصية أو الاجتماعية. ديبلوم تسيير مالي و مؤسساتي يتحول إلى مكتب خدمات معلوماتي رهين بمكاتب خارجية. مؤسسة بأكملها رهينة بتسيير من خارج البلد. عمليات تنفيذ لمهمات و أوراش عمل، ومراقبة من خارج الحدود، من طرف هيئات مجهولة السياسة و الأهداف. قد تسمع عبارة المدير العام للمراقبة عن بعد، المشرف العملي للأوفشورين، وغيرها من التسميات للشركات و المكاتب، دون أن تطّلع على الأشخاص أو تناقشهم الرأي في سيرورة العمل و مصيره...

الانتقاد المهني الذي أبدته رانيا لمركب الأوفشورين و شركاته المتنوعة، مرتبط برهان التبعية لقرارات خارجية من داخل المؤسسات العالمية الكبرى اقتصاديا و تقنيا ومعلوماتيا. كيف يمكن لقرار بالإغلاق أن ينتقل مباشرة إلى التأثير على وضع الشغيلة و طردها وإيقافها. رهان يجعل العيش داخل هاجس المغامرة بين الإغراء في الأجرة و التعويضات، وبين أخذ الاحتياط لمن استطاع ذلك أو البحث عن بديل قبل حدوث شيء غير متوقع و ليس في مصلحة المستخدمين.

إنه تهجير لسوق العمل و سوق الشغل. بحث يرنو إلى استغلال الكفاءات في محلها وبلدها، و الاستفادة من التخفيضات الضريبية وتكلفة الاستثمار. ما دام الأنترنيت اليوم يقرب المسافات و يمكّن من التحكم عن بعد، فإن الأوفشورين يوظفها كلّ بحسب مفهومه ومراده، فمرة نجد كلمة *Outsourcing, offshore, on shore,*

insourcing, délocalisation, externalisation également near-shore, right-shore , optolocalisation... بحسب الخدمات المرجوة والوظيفة المطلوبة...

ما استطاع السيد فحص فهمه من مراجعاته بعد المناقشة المستفيضة هو فعلا عملية تهجير لرأس المال و لفرص الشغل و للخدمات، حيث العملية مربحة و أقل تكلفة طبعا. هذه العملية التحكمية الماكرواقتصادية التي تجعل الكل داخل خليات ميكرواقتصادية، هي من فضائل العولمة الجديدة التي تمنّي على الموظفين خلقها لفرص الشغل لهم. لكن المقارنة التي تنتج مع الوقت بين شروط العمل داخل الدول النامية و داخل الدول الغربية مثل انجلترا أو كندا أو ألمانيا مثلا، تجعل الوعي بقصور الرعاية المهنية و الاجتماعية والتعويضية بين ال(هنا) وال(هناك)، بين المغرب مثلا مع غيره من هذه الدول الغربية. و رهان أزمة مالية عالمية مثلا سيسقط العمل هنا مثل قطعة من الدومينو...

يبتسم لاستنتاجاته و قراءاته ابتسامة تاريخية نكراء. يغازل الزمن لكي يسعفه بفهم مترابط بين الوعي الذي امتلكه في مرحلة ما من فهمه للنظام الرأسمالي و رهاناته المغامراتية والتي خلقت أزمات عالمية كبرى ذهب ضحيتها الأشخاص و المؤسسات، واستمرار رهان هذه المغامرة و المخاطرة داخل عولمة النظام الرأسمالي الجديدة و داخل هذه المؤسسات العابرة للقارات الغربية...

على الأقل استطاع هذا الاطلاع تمكينه من تفهّم لابنته رانيا. توجسها و هاجسها له مشروعيته. فقط عليها أن تعدد اختيارات البديل حتى لا تندم على الخطوة التي ستقبل عليها. هذا استنتاجه الأخير. لن تكون كندا هي البديل الوحيد... و مثلما طلب من ابنته ومن خطيبها تأجيل موضوع الهجرة، أجّل هو كذلك ملفّه المتعلق بها وعاد للغطس داخل

شجرة زوجته شادية يبحث في فروعها و أغصانها... لم تكفه شادية بروحها وجسدها، أراد أن يشرّحها الآن و يغوص في لا وعي شجرتها التاريخي و الأنثروبولوجي، لِمَ لا.
تعاتبه على تصوراته التي يتلاعب بكلماتها و هندستها في الإخراج. و يستمرّ هو في رهان لعبته ما دام بطلبها و رغبة منها.
ـ ألن تشفق على روح زوجتك و تحنّ عليها و ترأف بحالها. أريدها شجرة مزهرة، تعتني بها مثل عنايتك بأشجار حديقتك. كأننا أزهار لا نسمو إلى أشجارك؟
ـ ألمس من هذا أن طلبك في سياق تحليل نفسي هو تصريف غيرة جعلتِ رمزه بشجرة مغايرة لا مادية و منفلتة في التاريخ و الزمن.
ـ يسعدني في الحقيقة هذا الاستنتاج الذي لم يكن قصدي يوما. لكنه مناسب لي لكي أنتقم من ذلك الوقت الطويل الذي تمضيه مع أشجارك في الحديقة على حساب حبيبتك. عالم الكتب و قلنا نعم. ليس هناك مشكلة. و عالم الطبيعة داخل الفيلا يأخذك لساعات عديدة؟ أين أنا من كل ذلك؟ أبقى في انتظار رومانسياتك التي لا تأخذني كرفقة داخلها... و الغريب أنك أتيت بشجرة غريبة لا في التسمية و لا في البيئة المنتجة لها...
ـ ما هي؟
ـ البونسيانا، تلك الغريبة الصامتة التي تعانقها عبر شرفة مكتبك يوميا. تسحرك أزهارها فتبحث لها عن كل أوصاف كأنك عبدالحليم حافظ تغني (كامل الأوصاف)...
يدندن السيد فحص الخالدي الأغنية استرجاعا للحنها و كلماتها و عيناه تغازلان هذه الغيورة التي فضحها سرّها في هذا الحوار الجميل:
كامل الأوصاف فتنّي
و العيون السود خذوني

آه يا ليلي

آه يا عين

ـ ترانا رجعنا إلى مرحلة شباب... أليس من حقنا أن نغني؟

تربت على كتفه و تدعوه لمتابعة الغناء. في نفس الوقت تأخذها أنفاس داخلية احتاجت لكامل قصبتها الهوائية من أجل إخراجها و إخراج همّ مجهول تحمله كعاصفة غريبة عنها وعن وعيها... فقط عيناها كانتا تترجمان التوسل لما تعرفه و ما لا تعرفه...

-★★

فحص الخالدي، منذ مدة اختار عن قناعة الذوبان داخل حقل التدريس الجامعي و الحياة بالمدينة الرباط و العيش بشخصيته العلمية و الاجتماعية الجديدة. و حينما أشار لزوجته شادية بتلك الجملة فوق قصبة المازاكان، و جعل الهوية جغرافيا، آمن و يؤمن بأن الامتداد هو التواجد في المكان و الزمان المناسبين و ليس التعلق بخيوط وهمية غير موجودة. جعل المسافة بينه و بين التاريخ الذي ينتمي لحقل اشتغاله. هذه الذات لن تكون أكثر من وعي حاضر و حياة مشتعلة بحيوية وطلب رغبات و فكر متنوّرين. هكذا صبّ اهتمامه على مجاله ودائرته الأسرية و المهنية و العلمية. هكذا جعل علاقته بمنطقة امتداده محترمة في المسافة و في القيام بالواجب للزيارة و الالتزامات المحدودة.

و داخل النسبي الذي رسم مسار التاريخ، كان الانفلات بعض المرات هروبا من التعصب والتشنج و التخندق القاتل داخل جهل احتمالات و منعرجات الحياة ومسالكها. داخل ذلك النسبي قبِلَ لعبة زوجته و تضميد شجونها و إنعاش حنينها. مداواته لأشكال الفراغ الذي يمكنها أن تعيشه يعلم لها مبررات وأسبابا. لقد عاش السيد فحص الخالدي فترات فراغ داخلي و وجداني قاتلة. مراحل تيه و عبث وجهل بأهداف الحياة و غاياتها. هي وضعية آدمية يعاني منها الجل. خلقت فلسفات و تجارب فنية و اتجاهات ثقافية متنوعة في مختلف المجتمعات وعند جل الناس. لكن تجربة السيد فحص داخلها كانت قاسية. عانى فيها مرارات كبيرة، خصوصا و أنها تعقدت و تشعبت مع الثقافة و التاريخ والفلسفة والسياسة و الدين، أكبر هموم البشرية. هذه الحقول التي كان يشتغل داخل دوائرها، و التي كادت أن تعصف بصوابه وتفقده توازنه فتحرق دواخله. لكنه استطاع أن يرجع لها فواهة وخرطوم النار وفرطوس الخنزير المفترس. كل هذا التهمها لهيبا راجعا.

كان هو الشرارة، و كان هو الإطفائي في نفس الآن. تجنّد بالعلم وبالطب و بقانون الحياة. عانق سلاح القوة الداخلية. كانت كأسه وسيجارته الشقراء، و كان سفره و ثُرَيَّاهُ، جواهر العقد الذي بلسم حشرجاته و تفاحته الآدمية. الثريتان دائمتا الحضور، يقسم عينيه ابتسامات بينهما. لو كان للعشق مفتاح خلود لجعله لهما، شادية و رانيا.

يصل إلى درب معركة سيسائله عن ذا الغياب و ذا التغييب. و يحتاج لهذا الغوص الذهني بهذه الأفكار لكي يراجعه رياضيا و منطقيا و وديا. بكل أريحية يلاعب جوانب المكتب الخشبي البني بأنامله. يعتبرها رياضة ضرورية تساعد على التفكير و على الخروج من توتراته. في مونولوغ خفي و صامت يرحل مع ذاته:

ـ تريد أن تسافر بعيدا و تلاحق نجمتك القطبية اتجاه شمال غرب، وتنسى مسقط رأسك، طفولتك، امتدادك الاجتماعي الأول؟ ترقب المقبرة القديمة و الأخرى الخاصة وألوانهما البيضاء وأتربتهما التي اختلطت مع الجير الأبيض، الأب، الأم، العم، العمة... مهما ابتعدت يحضر هذا الامتداد فيك. فكيف السبيل إلى التوافق؟

ـ لا خلاص طبعا و لا تنكر. ما دامت الروح نفَسا في صعود وهبوط، هي الحياة. كلما أردت الابتعاد اقتربت أكثر. و كلما اقتربت نازعتك نزوة الابتعاد أفضل. جدليتك سيد فحص في الحياة. و أنت في هذه المرحلة العمرية، كم تبقّ لك من عمر لتعيشه؟ ما هو الأفضل لك اختيارا: هذا السفر بعيدا أم مصالحة مع الذات و امتداداتها؟

لم يجد أجوبة و لا قرارات مرتبطة بهذا التأمل الذي أخذ منه صبحية هادئة داخل شهر مارس الذي نحا إلى منتصفه و دعا إلى تهيئ لاستقبال فصل جديد... مرت أشهر على اختمار فكرة السفر و اتخاذ القرار المناسب... أجّل كل شيء حتى يرى مسار رانيا وخطيبها فيما يريدانه فعلا. متغيرات كثيرة وقعت منذ ذلك الحوار و منذ تلك الإشارات

التي جعلها لنجمته شادية. رسمت شجرة البونسيانا لمعانا مخضرًّا جديدا، وأزهارا مشتعلة حمرةً. شجرة اللوز احتفلت بندف بتلاتها الورقية و أزهارها ذات اللون الأرجواني الفاتح والمخترق لثويها الأبيض، لاقت الرياح في رقصات مسترقة. أما شجرة شادية فقد بقيت متشظية فوق طاولة خرائطه، خاضعة لتخطيطات و دوائر، متثاقلة بملفات جديدة وجذاذات منتشرة هنا وهناك. ربما لن تحب النظام لقيامها من رفوف الزمن. ربما أرادت حركة كمثل تلك التي تقع في الحديقة. مرة يمينا و مرة شمالا و أخرى تماوجا.

الجديد في هذا الشهر كان مشروعا متعلقا بمسار رانيا المهني. رحلة تكوين و نيل شهادة عليا متخصصة بفرنسا. مشروع هو الآخر يناسب الخطيبين، فتح قوسا جديدا للتفكير:

ـ لنجعلها رحلة صيف لباريس تجمع العائلة و تحضّر لاستقرار رانيا هناك. مرحبا باريس.

-★★

لن تكون رحلة عادية عند السيد فحص الخالدي. فباريس تشكل عالما خاصا ورمزية فريدة عند جل الناس. مرحلة شباب و دراسة متخصصة. علاقة عاطفية في الذاكرة. ابتسامة شارلوت داخلها كأنها ملصق فيلم سينمائي معلق على جدار الزمن و هذه الذاكرة. باريس الحلم الجامد في امتداد العمران و الذي يسري غليانا في شرايين الذات ومرايا حلمها المؤجل أو المستحيل.

ستكون هذه الصور الشاعرية مُغْنية لفؤاد السيد فحص و منعشة لها و مرجعة لشبابية نفسية كبيرة. ميزة شخصيته التي يكتشفها كلما همّ للسفر و قام به. ترجع الذات بالعمر إلى الوراء، فترفض التقدم المتشيّخ إلى الأمام. حيوية لا يدرك لها تفسيرا واضحا، لكنها تتحقق كل حين، و هنا في باريس الآن.

لا يصدق نفسه أنه في عاصمة الأنوار. يضحك من ذاكرته التي ربطت الأنوار لأول مرة قرأ فيها عن باريس، حينما كان يفسرها بالمصابيح المضيئة في الشوارع. ربطها بثريات ومصابيح الاحتفالات في بلاده المغرب. تبرق مبتسمة صورة طه حسين قبل غيرها في هذه الرحلة الذهنية. يتساءل فيما بعد: لماذا طفت صورة الأديب قبل صورة المؤرخ والسياسي حين مغازلة باريس؟

لم يحتجْ إلى جواب في الحين. اعترضته جملة الأديب المشهورة (باريس، بلد الجن والملائكة). تساءل كطفل صغير في لحظة ارتشاف فنجان قهوة منعشة للذهن بفضاء حديقة المنزل الذي حلّ به ضيفا هو وعائلته و صهره كذلك:

ـ طه حسين، لم يكن يرى بعينيه. كيف سيرى الجن و الملائكة؟

جال ببصره في محيط الحدائق الخضراء التي تؤثث فضاء هذا الحي من منطقة مونت لاجولي *Mantes la jolie*. وراء الطريق المعبّد غابة خضراء بأشجارها السامقة وممرات ولوجها و التجوال بالدراجات الهوائية. وراء الغابة يختبئ في مروره الهادئ نهر السين الذي يدفن أسرار التاريخ. مرة أخرى تزداد حرارة جسم السيد فحص الخالدي مع حضور رمز النهر الهرمي في ذاكرته. لا يدري التفسير النفسي المناسب الذي سيجعله لربط عشقه للتاريخ بعشقه للأنهار. درجة التشابه والتقاطع الموجودة بينهما. حالات الإلهام التي يحدثها هذا في الآخر، وهما معا في الذات. هي نشوة داخلية يتغذى بها و يتلاعب بسحرها وألوانها. الطريق الإسمنتي يخطف خيوط الذهن للعالم الشمال غربي لباريس ولخارطة فرنسا. لكن الحواس أكثر واقعية من الذهن. سحر الفضاء المحيط و أصوات الحوارات القائمة والمنفلتة من نافذة جلسة الصالون من داخل الفيلا، و صوت كلب الجيران الضوبرمان الذي يلاعب فتاة شقراء بجيوية لا يفوّت مناسبتها اليومية....

يبتسم للقدرية الجميلة. ابن عمومته، السيد يونس الخالدي، مهاجر متقاعد الآن وعمل حر وتجارة قائمة و مستقلة و مستغنية عن حضوره في تسييرها، هنا بمدينة مونت لاجولي، سافر إلى المغرب وسيقضي فيها ثلاثة أشهر على الأقل، مشاكل عقارية عالقة و تحتاج إلى حضور جلسات محاكم و استشارات محاميين و موثقين. أولاده الأربعة، اتخذوا لهم مسار عيش مستقل. بقي السيد يونس مع زوجته و التي هي بنت عمه وبنت عم السيد فحص كذلك. رغم أنها لا تتخذ نفس الاسم العائلي. السيدة سعيدة الدكالي، و التي ستعود لحمل الاسم الأول هنا بفرنسا لتصبح مَدَام سعيدة الخالدي.

يشاكس نشوته و يعتبر نفسه محتلا ديبلوماسيا للفيلا و للفضاء. لكنه يشكر القدر الذي يسّر هذا المقام كلما أتيحت الفرصة للمجيء إليه. وخلال هذه الزيارة التي ستطول،

سيتدبّر مع رانيا أمور الاستقرار الجديد المرتبط بالدراسة العليا التي اختارتها داخل ترقيها المهني. يحمد الله على هذا التغير الذي لم تعلم زوجته شادية بما سبقه من تدابير وتفكير في الهجرة إلى كندا. تأجّل المشروع. ربما لم يعد مناسبا ذكره ولا تناوله الآن. الآن سيكون التركيز على الوضع الجديد الذي سيعشقه السيد فحص و سينخرط في رحلته الجذابة. لكنه كلما رأى شجرة متمايلة مع ريح تفكّر شجيراته التي تركها في حديقته هناك بالرباط.

انضافت ابتسامة شجرة اللوز إلى ابتسامة طه حسين. نهض من أريكته الخشبية التي كان يدحرجها أرجوحة قاصدا جرعة لامعة تبرق وتنير أفكاره الجديدة. اللعبة مستمرة إذن. لماذا حضرته شجرة اللوز وقصيدة محمود درويش من جديد؟ صوت داخلي يستحضر ترجمتها الفرنسية التي حفظها عن ظهر قلب. تمنى لو أن صوت إديث بياف غناها في لحن رائع وخالد. لكن الواقعية لم تغب عن أمنيته. فقط أنه يجهل لها حقها في الحضور و الاحتجاج والغنج كذلك. نشوته في هذا السفر الجديد و الجميل. هي باريس، بلد الجن و الملائكة، لكنها هي كذلك ابتسامة شارلوت الرابضة في فؤاده.

الأيام الثلاثة الأولى كانت للاستراحة و الاكتشاف كما المعتاد. لم تكن هذه بالزيارة الأولى و لا يتمنى لها أن تكون الأخيرة. لقد ارتبطت عائلة السيد فحص بالمكان وبأناسه وفضائه أيما ارتباط.

حينما تنظر رانيا إلى عيني أبيها ـ بّابّا كما تناديه هنا بالديار الفرنسية ـ تلاحظ سر طفولة مختبئة و قد اشتعل توهجه من جديد. تبحث عن فرص مداعبته و التسابق معه... تختبر الذاكرة المشتركة للأسرة. قد تكون شادية أمها موضوع النبش في الذاكرة، وقد يتحول هذا إلى جزئيات الأسفار و اليومي القديم... لكنها هنا، يعجبها أن تراجع مسالك

الغابة المقابلة للحي السكني المحاط بالنباتات و الأشجار. فقد سبق لأسرة فحص الخالدي أن شاركت كضيفة شرف في مسابقات مواطني مدينة مونت لاجولي حول رعاية الأشجار و إعداد أفضل حديقة و أفضل مشاركة بيئية في إحدى مرافق الحزام الأخضر للمدينة هاته التي تتربع هادئة على عرش الضاحية الغربية الشمالية من العاصمة باريس.

يُسَرُّ كثيرا حينما يتذكر بأنه ينعم برحلتين في واحدة. يراقصُ رهانه فيها مثل عصفورين بحجرة واحدة. يستكين لمعادلته، ما دام يصاحبه ويصادقه و يصالحه مع الطبيعة والأشجار و مع الكتب و المتاحف والمعاهد الكثيرة التي تزخر بها العاصمة باريس.

لكن الرحلة نسبية في رومانسيتها ما دامت زوجته شادية قد اعتراها أرق مفاجئ منذ أيام خلت. لقد ظنوا بأن تغيير المكان و السفر إلى مكان جديد سيغير من نفسيتها، إنما ازداد أرقها و أصبح غامضا سرّها في هذا التعب المفاجئ الذي يوتّرها كل يوم. كانت جولات الغابة عبر مساراتها تسلية و رياضة و تفقدا لجديد الفضاءات. حزام أخضر مرفوقٌ بتغطية ورعاية، متنوعٌ في أنشطته الحاضرة والمناسباتية، و في شهر ماي هذا، و قد بدت السماء لطيفة في نسيمها العليل وهدوء سحابه الكثيف الذي يعبر فضاءه كضيف عابر، فيما منتهى رحلته مؤجل إلى أن يستقر أو يتوزع بعد حين...

شعرت شادية بالتعب خلال اليوم الثاني. لم تستطع مجاراة الثلاثة في خطوهم. اضطروا لأخذ استراحة طويلة في منطلق الجولة. فرصة استغلها السيد فحص لتتبع التغييرات التي عرفها المحيط و الدائرة. فمن خلال محكي ابن عمه ومتابعاته الإعلامية للأحداث والمشاريع، استطاع أن يجمّع معلومات تساعده على تحليل نسبي للأمور.

لا يدري لماذا يستمر الشأن الفرنسي في شغل باله و دراساته وتجميع معلوماته. مرة يُرجع المسألة إلى الامتداد التاريخي للعلاقات، و أخرى لعلاقته القديمة مع شارلوت، و ربما

يحتاج إلى تحليل أعمق سياسيا واقتصاديا. إنما هذا الصباح الذي انتصف بحرارته المعتدلة، أخذت منه ذكريات و حوارات مع أحد التجار قسطا من جولته. يحضره التحليل التاريخي الجدلي في كل ملاحظاته و مرئياته ومسموعاته أو مقروءاته... هي وضعية ابن عمه كذلك و شبيهتها، ستكون مونت لا جولي حضن التناقضات المجتمعية الفرنسية. فهي الضاحية البعيدة غربا وشمالا. وهي التي احتضنت المهاجرين في إقامات سكنية مكتظة بعماراتها الإسمنتية التي حشدت و خنقت الأنفاس و النفسيات... شعرت الأجيال بسياسات التهميش، تفجّرت في أشكال تعبير عن الغضب... انفلتت السلوكات و التمردات مع انفجار الانحرافات الشبابية ورواج المخدرات... لكن اليوم ليس هو البارحة، نسبيا طبعا. يلاحظ السيد فحص ذلك في الأحياء الجديدة التي أصبحت أكثر اخضرارا و امتلاكا لحدائق وإقامة لأنشطة مهتمة بالغرس والورود والأزهار وأجمل الشرفات... يتوقف السيد فحص أمام شرفة منزل ذي طابقين. يتأمل عاشقا ومبتسما، تنفلت أشعة شمس من سديمية الضباب الفضي الغاضبة على زرقة السماء... تغازله وتغمزه في عينيه حيث اضطر لإغماضهما في التحافه بدفئها وحرارتها المتزايدة بعد ذاك...

يعود لمجلس العائلة الذي اتخذ مقهى المحطة باحة استراحته. يسأل عن برنامج يوم الثلاثاء هذا في السادس و العشرين من شهر ماي من تاريخ البشرية المؤرخ بتاريخ الغرب. تعتذر شادية و تستسمح الجماعة في عدم قدرتها على زيارة باريس فترة ما بعد الزوال، رغم اشتياقها لفضاءاتها. لكن السيد فحص ملتزم بموعد مع صديق قديم و إدارة سكن. ستكون رانيا برفقته إذن. كذلك السيد سعد الماجدي خطيبها.

ـ أرجعوني أمانة إلى منزل عمومتكم و اذهبوا لأشغالكم. ستؤدون لي حقي فيما بعد وتعوضونني على عدم الذهاب معكم.

-★★

في رحلته الباريسية، ربما أراد خلوة للنفس مقتطعة من جزئيات اليومي. ربما، رغبة وجودية ـ هكذا استشعرها ـ يريد بها أن يجعل من اليوم أو النهار على الأقل، ألف يوم ومائة. لِمَ لا. صيغة المبالغة تعجبه في موكب السفر، ما دام الاهتزاز النسبي يرافق مقاييس الزمان والمكان و الذهن. إذا كان التاريخ الذي يدرسه يطوي الأيام والأمكنة، فإن باريس التي يعانقها للمرة العشرين أو الثلاثين، لا يهمه عدد المرات، تحتاج إلى التوقف على كل حركة ثانية. الذات منتشية بهذا الشموخ للتاريخ الذي تخلده المتاحف والأروقة و الأشكال الهندسية للبنايات ولعمران المدينة.

أنا شجرة. جزء من شجرة. و هذه المدينة تثبت لي صحة ما أقول، حيث التاريخ يقف على رجليه شامخا، ثابتا، موثقا. و ما خفي أعظم. كذلك الشجرة، ما خفي أعظم فيها. لنا رؤيتها وصورتها الخارجية المورقة، لنا خشخشة أوراقها ومراقصتها للرياح، و لكن، لا نرى و لا نبصر عملها اليومي في بحثها عن مواردها، في تحكمها في تجديد فروعها وأغصانها، في عمليات احتلابها وتبرعمها... لو كان شبابي يسعفني عمرا رغم أنه يسعفني سفرا، لراقصت كل جذع واحتضنت كل ريح تلتحف بالفروع و الأغصان.

أرخى سبيل المخطوبين لكي يتجولا بحريتهما، و بالخصوص، بأحلامهما. استعان بموعده الذي اقتربت ساعته السادسة، فاتجه صوب ساحة السوربون قبالة شارع سان ميشيل. اتخذ جلسته الظمأى للعروج الذهني بأحد مقاهي الساحة، مقهى ليبّاسّيو*LES PATIOS*. عكست ذاكرته مرايا أحداث و أشرطة، تماوجت بين ذات منشطرة في الوجدان و تاريخ مرتبط بالاجتماع و السياسة. لم تعجبْه الأشكال الجديدة التي قيِّدت بها الساحة. يتذكر السيد فحص الخالدي على الأقل أيام الثمانينيات التي كانت فيها الساحة مفتوحة لجلسات

الكتاب العالميين و الفنانين. تتقاطع فيها الثقافة و الإعلام والفنون. جلسة كانت تصاحبها لوحات رسامين وعازفين... ألوان عجرية كانت تعبر بعبقها شوارع باريس و أحلامها الرومانسية. كيف كان لأغنية الصيف الهندي للمغني جو داسان أن تحلق به من على ضفاف السين إلى عوالم الجزر البعيدة. لكنه كان يقص الصورة من كل أبعادها الكولونيالية التي أثّثتها و صنعتها. و حتى اليوم، ها هي باريس تشهد على زيف السياسة و مكر التاريخ. لا تعترف هي الأخرى بهذه القيود مثلما أن نفسية السيد فحص لا تعترف بها كذلك هي الأخرى.

شعر بتعادل و تسوية للأمر. النفسية منشرحة الآن. لكن استشعارا غريبا، و لو كان في أيام زمان، لقالوا إنها روح عابرة تغازل الذات، خطفته معها بعض الألوان الموزعة هنا وهناك. حاول استجماع ألوان طيف يشكل بها الثوب الراقص، تلك التنورة التي تعاكس تلابيبها خطوَ ابتسامةٍ و امرأةٍ و عطرٍ. نعم. هو طيف شارلوت، الحب القديم المرتبط بالمدينة. لكن أنانية خاصة رافقت ارتشاف فنجان القهوة والمسك بجريدة لوموند التي تصدر قبل موعد غدها، جعلت هذا الطيف أو أرادته في أيقونته الأولى المرمرية.

ـ كل الأحلام لك يا سيد فحص، إلا هذا. كيف تستطيع جعل شارلوت مستمرة في حيوية شبابها و طراوة جسدها الآن؟ مرت السنون، فانظر إلى ذاتك و جسمك أولا. شباب القلب ليس هو شباب الجسد يا هذا.

بحث عن ابتسامة شاردة عبر فضاء الساحة. و جدها في جلسة عشيقين في نصف استدارة مختلجة فوق درج النافورة المستطيلة على الجانب الأيمن لجلسته. حنّ لقبلة فراشة. فالقبلة غالية الثمن في زمن للحرية التي يبحث عنها الإنسان. و الحرية جوهرة

منفلتة زئبقيا لا تكتمل أبدا. كما هذه الساحة، لا تكتمل حريتها أبدا. مرت عليها أحداث وأحداث، 1968، 2006، و غيرها... و ها هي تبدو ظمآنة، راغبة في حرية.

ـ تُراني أنا الظمآن و المحتاج لجرعة من حرية؟

ابتسم لدواخله و أغمض عينيه مع عطر سيجارته التي تبدّل طعمها فأصبح سحرا منعشا لهذه الدواخل. لكن سرعان ما استفاق من رحلته و عروجه مع مقدم صديقه في باريس، أحمد الجامعي أستاذ جامعي في علم الاجتماع بجامعة ديدرو باريس.

ـ دائما في الموعد سي أحمد. اسم على مسمى.

ـ هي باريس، لا تخذل عشاقها.

-★★

سيحتار السيد فحص في هذا القدر الذي جمعه فجأة بأستاذ باحث مغربي مقيم بباريس هو هشام الديوري. فلقد كان لقاءُ السيد أحمد الجامعي بدايةً تواصل و لقاءات أخرى حضرها ضيوف آخرون. في بعضها حضرت شادية و معها رانيا و السيد سعد الماجدي، وفي أخرى كانت بدون حضور الثلاثة، لكن مع أسماء جديدة أرسلتها لواقح الأشجار.

في الأربيعينات من عمره. بطول المتر و الثمانين سنتيمترا، بقامة رشيقة تترجمها نوعية اللباس الذي يفضله الباريسيون عموما، في قميص قطني بني اللون و بمربعات عريضة من الفلانيل الناعم تناسب في تموجاتها سروال الجينز و هيأة صاحبه، كان هشام الديوري ذاك القدر الباريسي الذي فتح له أبوابا جديدة في تناوله لموضوع شجرة أنساب زوجته شادية.

ربما من حيث لا يدري سيعمل السيد هشام على زرع تناقضات النسبية و شرعية التساؤل والتشكيك في كل ما يقدمه لنا الماضي. ستصبح رواية الفرد دائمة المثول في قفص الاتهام في مرافعة تريد أن تفرز مِن و عَنْ خطابها كل ما تحتاجه من موضوعية. تُراه التاريخ يعيش متخفيا كخيوط مبهمة ومختبئة داخل نسيج المجتمع المركب والمتعدد الزخرفات و الألوان. أكيد أن هذا الاستنتاج التساؤل سيفسر للسيد فحص إشكاليات كثيرة ترتبط بالماضي و يمكننا تفسيرها بمعطيات حاضرة. إنما هذه المعطيات كما أجزاء نيزكية مشتتة بعد سقوطها عبر ربوع صحراء كبرى، غطّتها الرمال و كثبانها، طمرتها فأسكنت شعاعها إلى حين... و كان الشعاع هو ذلك الحديث الذي سيجمعهما ذات لقاء خلال نهاية الأسبوع الثاني من إقامته بإحدى ضواحي العاصمة باريس.

لم يتبق للسيد فحص سوى بضعة أيام حتى يعود إلى بلده المغرب. برنامج امتحانات بدأت ومستمرة. بحوث طلبة تنتظر التأشير النهائي من أجل الموافقة على طبعها. وطبعا هو برنامج خفيف يجمعه بطلبة الماستر فقط، ما دام التنسيق داخل شعبة التاريخ سهّل له البقاء طول هذه الأيام بباريس.

كانت هذه إحدى مضامين الحوارات التي قامت بين الطرفين. تعرّف خلالها السيد هشام الديوري على طبيعة اشتغال و تخصص السيد فحص الخالدي، مثلما تعرّف هذا الأخير على اشتغالات جليسه في وجبة العشاء هاته التي استضافهما فيها السيد أحمد الجامعي بإحدى المطاعم الآسيوية بالقرب من مركز بومبيدو الغني بمحتوياته و فرجة ساحته. فبعد تجوال قصير بين جوانب الساحة كان قصدهما بعدها لهذا المطعم الشهير اقتراحا من السيد أحمد الذي أراد ذوقا فريدا يخلّد للقاء ويبصم وقعه في الذاكرة.

ـ اسمع، سيد فحص. كم من مرة التقينا و كان اللقاء في الذاكرة. لكنه تراكم إلى جانب لقاءات أخرى فتشابه و تقادم. الآن داخل هذا الفضاء و هذا الديكور و هذه الروائح والأذواق والأطباق و الوجوه والألوان، ماذا أقول لك؟ لن تُنسى أيّ جزئية من كل هذا. هذه لمسة تطابق بسمة الجوكندا التي لا ينساها أحد بعد مشاهدتها.

ـ أتفق معك سي أحمد رغم أن هذه التسميات للوجبات تحيّرني: زنسال، سوشي، ساشيمي...

عمل التعليق على إثارة ابتسامات و ضحكات خفيفة... ساعده مسيّر المطعم على فهم محتوى الوجبات، علّق السيد هشام بقوله بعد ذهاب المسيّر:

ـ تعلمان، لقد استفدت من شرحه للسيد فحص في اختيار ما أريد أنا كذلك. نحتاج فعلا إلى قاموس خاص لفهم معنى هذه الكلمات والوجبات. هذا فضل باريس هو هذا التثاقف العالمي الذي تتيحه.

ـ كمْ مرّ على إقامتك هنا بباريس سيد هشام؟

كان سؤال السيد فحص مألوفا في جل اللقاءات التي تجمع أفرادا من جنسيات مختلفة. لكنه هنا، في هذه الجلسة، أثار حسرة خفيفة، خصوصا مع العدد الذي سيرافق الجواب:

ـ عشرون سنة، سيد فحص.

ـ و متى كانت آخر زيارة لك للمغرب؟

ـ عشرون سنة.

أثار الجواب تعجب السيد فحص. ربما قام بقياس لا شعوري لهذا الجواب على نفسه وعلى قدرته في البقاء خارج بلده المغرب. إنما لم يبين أي تلميح لهذا الاستنتاج.

ـ تبدو مدة طويلة.

ـ فعلا هي كذلك، لكنني ألفتها كما ألفت المقام هنا بباريس. خلال العطل السنوية أبرمج مع زوجتي التي تعمل معي بنفس الكلية رحلات إلى مناطق مختلفة من العالم. كل مرة تطلب مني زيارة المغرب أجيبها بتأجيلها حتى نزور العالم أولا. هو ابن بطوطة لن يعود إلى بلاده خاويَ الوفاض من ذكريات و مشاهدات.

ـ هذا اختيار. يعلّق السيد أحمد. لو كنتُ مكانك لزرت المغرب و لو ليومين في السنة، على الأقل أشم رائحة التراب و الهواء، ناهيك عن روائح أشتاقها لوجبات وعطور هناك. اعذروني ففلسفتي مرتبطة بعوالم راقصة للعطور و الروائح و لهذا نحن هنا في مطعم كيو.

احتاج السيد هشام للحديث النوستالجي عن بلاده المغرب. اختلطت الذكريات مع جروح قديمة و ظروف صعبة عاشها هناك. ستكون الصدفة كبيرة حينما سيشير إلى مسقط رأسه بمدينة مولاي إدريس زرهون. ما سيثير فضول و شوق السيد فحص لمعرفة المزيد و لتقديم نفسه كزوج تصاهر مع أسرة تنحدر من نفس المدينة.

ـ و الله العظيم جميل كل هذا.

ـ ما هو الجميل سيد هشام؟

ـ ستكون زوجتك من أهل عمومتي إذن. أما تزال الشجرة موضع تسابق و بحث واعتناق؟

ـ ماذا؟

أثار السؤال الأخير فضول السيد فحص، مثلما احتاج معه إلى تنفس يملأ به صدره استعدادا لطاقة الكلام و معانيه التي ستغير كل شيء في تناوله لموضوع شجرة عائلة شادية سليمان، زوجته الغالية. تراءت أمام عينيه خرائط و تفاصيل الجذاذات التي تركها مؤثثة لغرفة مكتبه بالعاصمة الرباط. استشعر بأن عمله الذي أراد له صفة أكاديمية ما أمكن، قد أصبح موضع تساؤل و تشكيك. حدس لم يخيب ظنه و لم يخالفه بالأحرى. فما كان من حديث عند سيد هشام أثار الاستغراب مثلما أشار إلى جوانب موضوعية وواقعية وجدلية كذلك.

أثار رأي السيد هشام اهتمام الطرفين فعلا. و رغم أن إشارته لموضوع شجرة الأنساب السليمانية كان عرضيا و لم يعطه اهتماما كبيرا أو استحواذا في التناول بالتجاور مع مواضيع أخرى ذات صلة أو هي بوابة كل تناول، فإن ذهن السيد فحص قد سجّل ما سجّله وخزّن ما سيعيد تحليله فيما بعد.

اعتبر السيد هشام أن هذا الموضوع مرتبط بالاهتمام بالهوية التي شغلت بال الناس وبال الباحثين منذ ثلاثة عقود على الأقل. جعل الاشتغال عليها اشتغالا ثقافيا متبرجزا، ما احتاج إلى تعميق النقاش بين الثلاثة لتحديد أو تجديد مفهوم البورجوازية و التبرجز والبرجزة. وطبعا غلّب السيد هشام الجانب الثقافي في تحديده و تصوره لهذه البرجزة. كان للتشبيه الذي استعمله وقعا مناسبا لتحليل وضعية المهتم لموضوع الهوية على العموم. وردة اللوتس، كانت أفضل شيء ملموس يمكنه أن يقرب لفهم هذا الاشتغال المتزايد. نرجسية جديدة يتقاسمها الناس فيلتقون في بركها أو بحيرتها التي تجمعها على سطح واحد وصفحة واحدة. كيف يمكن للسماء أن تعكس وردة اللوتس ببهاء ألوانها؟ إنها تبحث عن اعتراف بجمالها وتشرنقها و ريعانها و بزوغها. قد تضحك الشمس علينا حين سماع رغباتنا النرجسية واللوتوسية.

ـ أنظرا إلى هذه اللوحة على هذا الجدار داخل المطعم. ألا ترون تكامل الألوان مع الجسد مع الوقفة مع الأناقة المطلوبة في الرسم و في استقبال المشاهد لهذا الرسم؟ عملية تنميط يريد الكل أن يخلّد بها صورته عند الآخرين، بينما هو واقعيا دائم التحول والتشرنق. لم يكن كافكا بغافل عن الظاهرة الإنسانية المرتبطة بالتشرنق الثقافي والسلوكي الذي يحتاجه الفرد مع كل تحول سياسي أو اقتصادي... هذا رأيي الخاص في تصور كافكا في كتابه التحول أو التشرنق باللفظة التي أحبذها.

إذا كانت المصابيح بألوانها المتنوعة و الخافتة قد انعكست على هيأة لباس كل زبون بشكل مغاير لحقيقة ألوان ثيابه، فإن قميص السيد هشام قد بدا مداديا، كما أن صفحة وجهه قد لمعت مع ضغط المجال المغلق و دفئه. فيما بدا الشعر الأبيض الذي غزا رأس السيد أحمد مشتعلا كمدفأة كهربائية تزين زاوية من صالون أو جلسة. و ما كان السيد

فحص لتثيره هذه الملاحظات في الوصف لولا تلك التي بدأت بها الجلسة و اختيار المكان والحديث عن الرائحة و ذاكرتها وذكرياتها... أراد أن يرصد الألوان المتغيرة. ربما اهتزاز خيال و مجاز تفكير أراد جعل رومانسية تعلو فوق هذه المناقشة الموضوعية.

لكن كل هذا لم ينتبه له الطرفان الآخران، حيث تابع السيد أحمد مناقشة ما بدأه السيد هشام حول موضوع الهوية:

ـ يمكن اعتبار سقوط جدار برلين رمزا لصعود خطاب الهوية. لكنني أتساءل عن سر هذه الشجرة التي أشرتم لها في الحديث و الحوار.

ـ أعتبرها كنزا يتسابق عليه البعض للفوز بجائزته. هه، ليست جزيرة الكنز كما في البرنامج التلفزيوني طبعا. لكن ما أعلمه مع آخر ما تركته في المغرب هو عملية استحواذ عرفتها الشجرة من طرف شخص أو عائلة و استغلال لها في قضاء مصالح و الحصول على تميز اجتماعي أو غيره... أما زالت محتكرة في الشرق؟ لا أدري ما مصيرها. وثيقة مكتوبة بماء الذهب. أشخاص يبحثون عن نسب شريفي قدسي يجعلهم مميزين داخل المجتمع، ما زلنا في تراتبيات القرون الوسطى. حتى العقليات ما تزال قروسطية. ربما يعلم السيد فحص الآن لماذا لم أبحث عن معاودة الزيارة للمغرب منذ مدة. تركت صراعا حول الموضوع، كانت عائلتي ضحية إنكار و عدم اعتراف بسببه. كانت فقيرة و كنت فقيرا. كافحت من أجل الحصول على منحة أَهّلَتْنِي لكي آتي إلى باريس. أتعْلَمُ تلك الأغصان التي تلفظها الشجرة فتنقلها الرياح؟

قد تموت أو إنها قد تنغرس بتربة جديدة فتجعل لها حدائق حياة جديدة، ذلك ما يمكنني قوله حولها. المشاكل الحياتية هنا مختلفة جدا ومتطورة جدا. آخر ما علمته من خلال مكالمات هاتفية مع أفراد العائلة أنها محتكرة ربما الآن في مدينة مكناس، و ربما ما تزال في

الشرق. لكن الغالب أنها انتقلت بموجب حكم قضائي تجنّدت له جماعة وقيادة وزعامة من أسرة بالشرق إلى أسرة بوسط المغرب. الآن، هناك استغلال جديد لها يحتكر قداستها ووظيفتها، وهناك تهميش جديد للبعض بسببها. كم من الناس ينتظر فرصة الاستفادة من هذا الريع، لكنه يبدو أن الغلبة للأقلية التي تستطيع الاستحواذ والاستغلال... لقد جعلتني أصحح معلومات الذاكرة المتشظية في ذهني الآن. أعتذر عن كل ما قلته. فقط ما أعلمه و أظنه عنها وظّفته في مناقشته معكما.

ـ سيد هشام.

بوجنتين محمرّتين، و فتحة أزرار بفعل حرارة فضاء المطعم المعتدلة وحركة الزبائن والمستخدمين و المستخدمات و موسيقى تنبعث معها أصوات يابانية في سمفونية هادئة لكاتسوشيكا هوكزاي، و مع تخليطة و توليفة المواد و التوابل المشكّلة لوجبات هذا المساء كعشاء، حاول السيد فحص التحكم في عناصر مناقشته للموضوع حتى يبحث عن الجديد الذي يمكنه أن يستفيده من هذا الصديق الجديد المرافق لصديقه القديم.

أعاد عبارته بعد تناول جرعة صغيرة من خمر معتقة فرنسية:

ـ سيد هشام. أستسمح إذا طلبت الاستمرار في مناقشة الموضوع من زاوية أراها جديدة عليّ. قد أتفق معكما حول مبررات و سياقات هذا الاهتمام بموضوع الهوية والشجرة. إنما الجديد الذي أشرت إليه أعجبني ويدعوني إلى مراجعة تناول هذا الموضوع. هذا الصراع الذي يدور وهذا التسابق الذي يجري بين الناس حول كسب القداسة أو شرعنة الانتساب، يخفي وضعية سيكو اجتماعية و ثقافية فريدة من نوعها داخل مجتمعنا المغربي. إنني أستغرب كذلك لاستراق باريس و هذه الأمسية لحوار مثل هذا. دائما يحضرني

التحليل الجدلي والنسبية في تشكل الحقائق و تقبلها. و هنا أراهما من الضرورة بما كان. طيب، لنعد إلى جو المرح بعض الشيء.

ـ أستسمحكم عذرا. عندي التزام مع زوجتي صابرين هذه الليلة. سأضطر إلى الانسحاب الآن. الساعة تشير إلى الثامنة و النصف. أرى أننا مارسنا ثقافة شرقية بامتياز. جلسة رجال في غياب النساء.

ضحك الجميع للتعليق و اعتبروه مقدمة لتسريع الانتهاء من هذه الجلسة التي أخذت منهم الساعتين تقريبا. و فيما انسحب السيد هشام على أساس الاستمرار في التواصل مع السيد فحص، رافق هذا الأخير السيد أحمد الجامعي في سيارته في رحلة إلى الضاحية الباريسية مونت لاجولي.

-★★

زيارتان للعاصمة باريس كانتا بدون رفقة شادية. هي الأنثى بقدر ابتسامتها بقدر غيرتها. هي غيرة على الحياة و من أجل الحياة. كيف تحلو لك الحياة و السياحة بدون حضور من تحب؟

لم يجد السيد فحص من جواب سوى بالموافقة على الرأي و التأييد للجواب بنعم.

- و كأنك جئت لتلتقي بصديقك سي أحمد الجامعي. و حبيبتك؟

- ها هي هذه الخرجة لك وحدك سيدتي.

- لنا وحدنا. لا تنسى أننا اثنان في واحد.

- كلامك صواب مائة في المائة.

- كم من حق الآن عليك تسديده يا فحص. و لكن لا بأس، سأكتفي بطلب لوحات الشوكولاته و العطور الباريسية.

يضحك ملء شدقيه و يؤيد الحكم الذي صدر، و ينطلقان في رحلة الاكتشاف المتجدد لشوارع باريس المحبّبة عندهما. فحص في قميصه السافاريه المزركش بألوان مفتوحة وسرواله الأبيض و حذائه الرياضي الأبيض كذلك، و شادية في بذلة صفراء فاتحة اللون وحذائها المستوي بدون طالون. زوجان منخرطان ضمن زمرة السياح المشكّلين لحركية باريس الفنية.

كانت البداية بشارع ليشونزيليزي و ساحة الكونكورد ثم برج إيفل حيث إطلالتهما على سطوح و عمران و هندسات باريس. فتحا نقاشا حول فكرة زيارة السيد سامي ميمون بن كادار، وحبذاها و وجداها مناسبة في غياب رانيا التي انطلقت للسؤال عن شروط إقامتها وتكوينها و عملها المرحلي بالعاصمة الفرنسية.

ما يزال الاتفاق و التعاهد قائمًا على إبعاد رانيا عن لقاء السيد سامي ميمون و عائلته سواء هنا بباريس أو بنيويورك أو بالأراضي المحتلة. فبعد أن هاجرت عائلته الكبيرة والصغيرة كان أب السيد ميمون سامي ملحّا على عدم الذهاب إلى الشرق. بخلاف أسر أخرى وقرابته منها. و بعد وفاته كانت الوصية بتجديد التواصل مع السيد فحص وأخيه يوسف. تلك بدايات التعارف والترحم على المفقودين.

حضور السيدة شادية كان اكتشافا و تطلعا لعالم هذه الأسرة التي ارتبط بها السيد فحص. أما مناقشات الطرفين فحص و سامي ميمون، فقد كانت متدرجة من الإنساني إلى أن تصل إلى ما هو سياسي. لكن الجميل في هذا السياسي هو التزامه بضوابط الحوار النسبية واحترام كل طرف لرأي الآخر، و تجردهما عن كل مسؤولية وقعت أحداثها وتبعاتها في تاريخ شعوب البحر الأبيض المتوسط. وجدت السيدة شادية نفسها مندمجة في موقف الحياد و الاحترام و تتبع الواقع الموضوعي و رؤية ما يؤول إليه. مسافة ساعدتها على فهم الإنسان قبل السياسة و التاريخ الذي يسجلها.

السيد ميمون بن كادار كان من بين أواخر من قرروا الهجرة خارج بلاد المغرب. حياته استقرت بتجارة و علاقات طيبة داخل مدينة الدار البيضاء بعد أن أتى إليها من الجنوب المغربي. كان الوحيد الذي أراد أن يبقى إلى جانب أخته (يسّة) المتزوجة من مغربي مسلم. لكنه سرعان ما اكتشف بحدسه أن الظروف أصبحت صعبة، خصوصا مع تأجج الصراع بين الدول العربية و دولة إسرائيل. في حكيه لأولاده ومعارفه يعبّر عن الظروف النفسية لهذا الصراع:

ـ كم يصعب على الإنسان أن يقرر و يقول أنا لست مسؤولا عما جرى و يجري. أنا محايد في هذا العالم. لكنه سرعان ما يكتشف بأنه جزء من ثقافة و اجتماع و تفاعل وهوية. ما

العمل؟ اخترت هذا الحل الثالث. ها أنا الآن مغربي فرنسي إذا قِبل بي العالم في هذا الوضع.

نباهة و ذكاء انتقلا إلى أولاده تربية، فكان السيد سامي ميمون يحمل نفس ثقافة أبيه. وعند تجديد لقائه بالسيد فحص الخالدي أكّد على نفس الأفكار و المواقف، و احترم وضع كل أسرة و ما آلت إليه ظروفها.

تتأمل السيدة شادية في جلستها بمقهى الانطلاق المتحاورين بشوق طال انتظاره قبل اللقاء. جبهتاهما العريضتين و شبه مربعتين، لكنهما متناسبتين مع عرض وجناتهما. لونُهما الأدهم. ذقناهما الممتلكان لدائرة الوجه و صفحته. ملامح حسن رجالي متكامل مع صوتهما و حركتها المرافقة.

تنقل بصرها لرؤية حركية الوالجين لأنفاق مترو باريس. تتطلع بعينيها إلى ورقة كشف حساب المشروبات. تبتسم لشرط المقهى في تجديد الاستهلاك على رأس كل نصف ساعة، كما تحملق في ثمن كل مشروب مستغربة، و في نفس الآن تتابع المتحاورين في صمت محترِم لخصوصية اللقاء.

ـ متى يمكنني أن أرى الأميرة رانيا؟ يسأل السيد سامي ممعنا النظر والابتسامة في جليسه المقابل له.

ـ اترك الأميرات في هناء سيد سامي فباريس لا تحب إزعاجهن. كفى ما وقع للأميرة ديانا في عاصمتكم.

تنطلق ضحكات السيد سامي مختلطة بابتسامات متوجسة من هذا التشبيه ـ لا لا لا. لا تهوّل الأمر سيد فحص. أميرتنا في الحفظ و الصون في باريس. على العموم سأنتظر حتى

تحين فرصة التواصل و التعارف معها. ما رأيكم هل نجدد طلب مشروب جديد؟ أرى نادل المقهى وقد احمرّ شدقاه و انتفخت أوداجه.

ـ مسكين عليه ضغط المشرف. من الأفضل أن نستغل الوقت لزيارة مواقع جديدة، فهذه أول زيارة لباريس تقوم بها شادية خلال هذه العطلة.

ـ أوكي سيد فحص. نشوفك حبيبي أكيد. لا تنسَ أنني متقن للدارجة المغربية.

ـ بزاف ولاّ شويا ؟

ـ بزاف، بزّاف.

افترق الجمع على ضحكات هذه الألفاظ التي تخرج متثاقلة من مخارجها الصوتية عند السيد سامي ميمون. و انطلق الزوجان لزيارة مكتبات الشارع الكبيرة.

-★★

بوصلة جديدة سيأخذها مسار البحث في شجرة أنساب شادية سليمان. هناك التاريخ الثابت و التاريخ المتحول. هناك التاريخ القديم والتاريخ الراهن الذي يسري في دروب حياة المعنيين به اليوم. يتحوّل مع تحولاتهم و أشكال وعيهم و علاقاتهم ومصالحهم وضغوطهم.

ما تريده شادية هو ذلك التاريخ الثابت. قد تكتفي بالجانب الشكلي منه فقط. لا يهمها اختلاط الأوراق فيه و لا صراعاته. بحثها انتشاء بنسب و بسيرة أب و جد ومشاركة أُمٍّ متعلمة في حركة المقاومة بمساعدتهم و تخبيء السلاح لهم عندها في خزائن المنزل بقرية فرطاسة بضواحي زرهون. سيرة عائلة انتقلت من بلاد تازة و منطقة البرانس إلى منطقة شراكْة حيث وضعها المتوافق مع الهجرة التاريخية للسليمانيين الذين نزحوا إلى بلاد المغرب فرارا أو رفضا للحكم العثماني. شراكْة تلك الكلمة المأخوذة من أصلها شراقة نسبة للشرق، هي قبائل أتت من الشرق. أصولها من قبيلة الشجعة و قبيلة حميان من وهران بالجزائر. قدمت مع بداية الحكم العلوي بالمغرب مع قبائل عربية أخرى. هي قبائل مخزنية يعتمد عليها في الحروب حيث يشارك أفرادها كجيش للدولة.

ما يثير اهتمام السيد فحص في هذا البحث التاريخي هو تشكل هذه القبيلة الكبيرة من عرب و أمازيغ. توحدهم على رسالة واحدة. لكننا اليوم، ما نزال نجد تمييز بعضها على البعض الآخر بذلك الانتماء الشرفي و العربي. فمثلا قبيلة شراكة الاتحادية القديمة تتشكل من البطون الآتية: الحمران ـ الشرارية ـ أولاد بوشيبت ـ أولاد بوخف ـ الغزلان ـ أولاد معلا ـ علويون شرفاء ـ حوانشة الشرفاء ـ الحدادة الشرفاء... نفس الأمر نجده في قبيلة بني سنوس مثلا...

لقد جاءت هذه القبائل الاتحادية ـ هكذا يكون وصفها البنيوي المساعد على التحليل ـ إلى مدينة فاس سنة 1016 هـ الموافق لسنة 1607 أو 1608 ميلادية. اتخذهم السلطان السعدي جيشا له لحماية قصره. هكذا استند السيد فحص الخالدي إلى معطيات كتاب الاستقصا في توثيق تاريخهم. و بعد ثلاث سنوات اشتكى أهل فاس من سوء معاشرتهم ـ هكذا وردت العبارة في المصدر المعتمد ـ... و قد قام قتال انهزم فيه (الشرگيون). و في سنة 1020 هـ خرجوا إلى باديتها و مكثوا في أحواز فاس إلى عهد السلطان مولاي رشيد العلوي حيث اجتمعوا عليه من عرب أنكَد وغيرهم...

هكذا سيفسر السيد فحص الخالدي سر لجوئهم إلى منطقة تسمى الآن بتسميتهم (شراگة)، بعد ابتعادهم عن منطقة البرانس و ضغط المستعمر وأشياء أخرى هناك. الأصل الواحد في الهجرة من بلاد تلمسان. فكلهم عرب و بدو تلمسان. امتداد التاريخ المشترك داخل الدائرة الواحدة التي هي مدينة تلمسان و أمجادها التاريخية منذ العهد الإدريسي الذي يفتح قوس التساؤل حول نوع الهجرات التي رافقت قيام الدولة العباسية من الشرق و من بلاد الأندلس. حول نوع القيادات والامتيازات التي قامت. حول لجوء عائلات العلويين للاحتماء تحت لواء الدولة الإدريسية القائمة، و إلا كيف نفسر وجود عم أو ابن عم إدريس الثاني حاكما على ولاية تلمسان في عهده، و هو سليمان بن عبدالله الكامل أو ابنه ربما؟

يتوقف السيد فحص الخالدي ليدقق بين رواية زوجته شادية مع الإشارات التاريخية الضئيلة في الموضوع. يلاحظ أن ابن العم هو الأرجح في أن يكون واليا على منطقة تلمسان في عهد إدريس الثاني الممتد بين191هـ و 213هـ تقريبا ـ باعتبار أنه بلغ سن الخامسة عشر حين تولّيه قيادة الدولة تحت إشراف وليّيه المولى رشيد الذي توفي مقتولا

سنة 188هـ، وأبي خالد يزيد العبدي الذي خلَفه. فقضاؤه ثلاث سنوات بمدينة تلمسان خلال خرجاته لتمديد رقعة الولاء الديني و السياسي يرجح أن ابن عمه هو المقصود.

سينقلها إلى عهد القائد التاريخي و الذي هو ولد ابّا محمد، في بداية القرن العشرين، والذي كان من قبيلة شراگة وبه سميت مدينة قرية ابّا محمد فيما بعد. يبقى الإخراج الدرامي الذي سيرتبط بجمال فتاة من أسرة السليماني النازحة من منطقة تازة، و قصة الأخذ بالجزاء من أجل الشرف وقتل ابن القايد و الانتقال إلى مدينة مولاي إدريس زرهون مهد الدولة الإدريسية و طلب شفاعة الحرم الضريحي هناك، بداية لتاريخ جديد للأسرة السليمانية التي تنحدر منها شادية سليمان...

سيتبادل الطرفان اللذان هما السيد هشام و السيد فحص رسائل إلكترونية تتضمن ملاحظات و تحاليل حول الموضوع، و سيعود اهتمام متفاعل حوله و اشتغال يطوره لفرضيات و استنتاجات أراحت بال السيد فحص ما دام قد استكان لمنجهه التحليل تاريخي الموضوعي... شعر بأنه مال متعاطفا مع الرواية التي تُرضي زوجته شادية و تحقق لها الانتشاء و الافتخار المثالي بتاريخ العائلة الكبير، لكن، ها هو يعود لتناولٍ قد لا يرضيها. على العموم سيحتفظ باستنتاجاته و تحاليله لما سيحتاجه من دراسات مقبلة حول الموضوع، و كذلك ما سيحتاجه مع طلبته الذين بدأ معهم الاشتغال حول تاريخ الدولة والهجرة...

و بقيت دوائر التاريخ المتعلقة بالمدن التاريخية مفتوحة لدراسات أكبر. بينما التاريخ الراهن الذي سيكون سياسة صراعات اجتماعية و توافقات مصلحية أو تضاربها سيبقى موضوع متابعة ميدانية إذا صحّ التعبير. هذه الشجرة من ذهب، وهي المتحركة مثل رداء

أسطوري يحف من يمتلكه و يحقق له أمانيه مثل بساط الريح لسندباد أو الإبريق السحري لعلي بابا. و كم هي جميلة الأسطورة حين تغلّف لعبة الواقع الكبيرة المتخفية.

-★★

{شجرة مسقية بماء الذهب. هل يمكنها أن تؤدي وظيفة تميزها عن الأجمة، بل عن الغابة التي تعترشها و تحتضنها؟ كانت البداية مع شجرة المعرفة و شجرة الخلد، فهل تكون نبتتها وعشها و أوراق أغصانها هي الواهبة للخلود و المطهرة من أشكال الدنس التي تبصم الدنيا بالفناء وبالوقوع في الزلل؟ كيف لشجرة بماء الذهب أن تكون حاكمة ومتحكمة في قانون الشجر و غابه و ظلاله؟ كيف لها أن ترسم دوائر الانتشار و نشر هذه الظلال؟ أن ترتوي قبل الأخريات، و أن يكون لها سبق غيث السماء، و أن لا تنضب إذا عم قحط أو جفاف؟ تلك سيرة مجتمع تقاسم بهاء الغاب تحت ظل قانون لا يريد وصفه بوصف يشبه الغاب. و الأنانيات، ألا توقع في لعاب أنياب و قانون غاب؟ عظيم شأننا وتجاهلنا}.

لقد اختار السيد فحص الخالدي بداية هذا التحليل أن يكتب بحبر صيني مُذهّب. اختار له قلما جديدا، حبريّ الامتلاء. أرادها مرافعة صامتة و حكمة متبصّرة.

{ أن تكتب للذات، يعني أن تخلق لها صفاء ماء تسبح فيه طهارة نفس داخلية لا ارتدادا لدوائر الغطس و الوقع فوق صفحة الماء. ربما يحضرني عطش ما هنا. سأسقي الفؤادَ بالحبر و الظمأ بالماء. قد أفسّر بهذا سر بحث الناس عن منابع المياه و الشلالات، حجّا وسفرا ومشاقا. البحث عن الماء، بحث لخارطة طريق، لذاكرة الحياة و سبيل استمرارها وأمدها. و لكن، أية نظرية علمية ستختبر هذا الافتراض؟}.

سبعة عشر يوما اختبرها الزوجان قطيعة ناعمة. يتقاسمان فيها القليل من الكلام، يتستران عنها في كل مكالمة هاتفية مع بنتهما رانيا. تجمعهما النصف ساعة تقريبا في جلسة

الهاتف الثابت و الآخذ للتناوب بين أريكتين، في ديمقراطية بين طائرين متغاضبين هما فحص وشادية.

يصف بحبره الذهبي خصامهما، فيجعله داخل دائرة الحب المستمر دلالَ أطفالٍ وتغنجَ صبا. ذلك الوجدان يرفض ما يقع مع الآخر في تبادل هجر و عبير كلام. لو كبُرت الأنانيات لتحوّلت إلى لهيب و ألسنة نار و سمّ أفعى يحرق و يسحق شرايين و عروق شجرة الحب و الزواج المستمر لعقده الثالث و لما سيأتي بعده...

كأنها دولة في حداد، نكست أعلامها و شحبت ألوانها، و استقال الشعراء والمغنون عن إطرابها. جو الفيلا الذي يسوده مناخ طوارئ وحالته. الصمت المريب الذي يفرض على الخادمة فاطمة ما قل و دلّ من الحركة و من الكلام. الهواتف المحمولة التي أصبحت بكاتم صوتها، ستائر النوافذ و الشرفات التي نادرا ما تشرع أقواسها لنور النهار حتى تخترق أشعة الشمس فضاءات الطابقين السفلي والعلوي...

من سيكسر هذا الجليد الطارئ على دائرة المناخ الاستوائي الذي احتضن شجرتي البونسيانا و اللوز في آن؟ و كيف يهرب منك نبض قلبك ليخونك في محاولة مصافحة للآخر فتجد اليد مرتعشة ومتعصبة، و الدم متخترا احتجاجا على جمود الحياة؟ لا حياة بدون ربيع. أكيد. هكذا شعر الطرفان بغرقهما في خصام لا محل له من الإعراب سوى شجرة من ذهب رفضت و استاءت لاختراق غابها بقانون آخر.

أن تكون الكتابة سببا لكل هذا الغضب، ذلك ما جعل غرفة عمليات القلم و هو يخط أفكاره يريد لها أن تكون مغلقة الستائر تحت نور مصباح متدلٍّ و مشرف عن قرب على الصفحة و على الحبر. و كأن النور يقطف الأفكار من علٍ، و الورق أرض و التربة مداد والمحراث قلم.

أن تكون الكتابة عملية خطّ خارج الزمان و المكان، وداخل سديمية المعنى حيث لا تأثير للنفسيات و لا لخواطر الحياة عليها. تلك روح الكتابة التي امتلكت السيد فحص الخالدي. لم يردِ أن يعدّل ما كتب بدون أن يحصل على معطيات جديدة. في انتظار ذلك، كان عليه أن يخرج عشه من غضب الشجرة التي لم يرُق لشادية ما خطّه حولها.

ـ ما كتبتُه مجرد افتراض من بين افتراضات. ليست هناك استنتاجات بعدُ.

ـ و لماذا عاكستَ الرواية بنقيضها؟

ـ ما سمعته من السيد هشام الديوري أثار فضولي في مزيد معرفة بخصوصيات اجتماعية ميدانية و أحداث مرتبطة بها. من حق الكتابة أن تستند على بيانات مختلفة. حتى الحديث الشريف يدعو إلى سماع الطرفين، البينة على المدعي واليمين على من أنكر.

ـ أنا لست في مرافعة داخل محكمة حبرك و قلمك. أنا زوجتك. طلبتُ منك تدوينا وبيانا لتطور شجرة العائلة، و كفى.

ـ لا. هذا لا يكفي. مهمتي لا تنحصر فيما تريدينه. عقلي يشتغل على الآتي و ليس على الحاصل الآن. التاريخ راهنية تجري مع مجرى النهر، و لابد لي أن أواكب سباحته ومنعرجاته و شتى تخالجاته...

كان الجدار الذي ارتطم به الحوار، و كان ذلك الصمت الذي خيّم على العلاقة. بين متنافسين أو متنافستين: الكتابة و العاطفة.

-★★

أجواء رمضان تفرض على جل الأسر المغربية برنامجا و ثقافة يوميين خاصين. تعيش من خلاله المدينة المغربية طقوسها الربانية بامتياز. وإذا كان للسيد فحص من اختبار مع العقيدة والعبادة فإن أكبر اختبار هو هذا الذي يعيشه خلال هذا الشهر. لا يحب المسرح كثيرا. لذلك تجده نادرا ما يتابع فصول مسرحية من بدايتها إلى نهايتها. يحب اللوحة المرسومة و الفن التشكيلي نعم. يشتاق لزيارة الأروقة والمتاحف والمواقع الأثرية. قد يقف من زاوية عالية وبعيدة تجعله يرى مدينة الرباط موزعة بين مرافق و أحياء. قد يميز من خلال كل ذلك مواقع أثرية بالخصوص لقصبة الاوادية التي يزورها كثيرا، وموقع قصبة شالة والأسوار الممتدة للمدينة القديمة... لكن مروره بجانب المسرح الوطني ورؤية رمز قناعين بين ابتسامة وعبوس، يجعله مشمئزا و رافضا لهذا التناقض. يشعر بأن القناعين يقبضان نفسيته و يجعلانها متشظية.

في هذا الشهر الكريم، يلاحظ تقاسم وجه الإنسان مع القناعين، عابس بالنهار ومنفرج بالليل. لا يحب ذلك الارتماء الشكلي في روحانيات سرعان ما تصبح عطشى للماديات... تحفظاته منطلقات فلسفة خاصة تحترم الدين و تجعل معه المسافة. إنما ككل زوج و كل أب، أو لنقل كجلهم، يمارس طقوسا محترمة للشهر الكريم.

في ظل هذه الأجواء التي توتره في الملاحظات داخل فضاءات المدينة كانت زيارة أفراد من أسرة زوجته شادية لهما لكي يقضوا معهما بعضا من الأيام الأخيرة من شهر رمضان... حرارة بدأ معها سيلان جبل الجليد كلاما متبادلا و منسجما مع حوارات الضيوف فكان جداول أعادت الحياة بشرايينها المائية الطبيعية و الدافئة... لكنها فجّرت عقدة الاختلاف والاشتغال. اتقدت معها الشجرة الذهبية في تناول جديد.

ربما ذلك ما أراده السيد فحص. مواد جديدة تنضاف للقديمة، و من الأفضل أن تُناقضها وتُغايرها، حتى يكون التناول جدلية تعطي الحياة للبحث عن الحقيقة المتاهة أو متاهة الحقيقة.

كان في كل انفتاح لتواصل جديد يرافق اللمسة أو الكلمة بالنظرة أو الابتسامة. قد تبادله شادية نظيرتها، لكنه قد يفك شيفرة لمسات خفية رافقت أيام الصمت التي طغت على أجواء و أرجاء الغرف والفضاءات داخل الفيلا. كانت الأشجار تتكلم بحفيفها. كانت أذناه تصيخان لحواريتها، لكن الجدران و اللوحات و أثاث وديكور المنزل كان هو الذي يرد عليها بصمت مطبق مجيب.

و أمام الضيوف، و هو يأخذ من يديها فنجان القهوة المعدّ لجلسة الصالون في هذا المساء الرمضاني، يتذكر القميص المصلوح و الموضوع بربطة العنق المناسبة لجلسة المناقشة لرسالة دكتوراه ذلك الثلاثاء المنصرم. قارورة عطر الحلاقة التي استبدلت في الحمام. بذلة النوم الموضوعة في المساء من أجل استبدال لباس التعب اليومي. ألا نتخلّص من جل اللباس بمجرد ولوج المنزل؟ كم من راحة نشعر بها فنصبح شبه سعداء؟

في (فطورية) تذكر انتعشت شرايينه و عروق جسده بضخات دم جديدة فائرة، استرق نظرة عشق و شوق ضبطته معها متلبسا بجرمه المرغوب. ربما استحضرت شادية مجلتها الأسبوعية التي وجدتها فوق الطاولة الزجاجية أمام أريكتها الوجودية في الصالون. انتظاره لها في باب الفيلا في الصباح حتى يوصلها إلى موعد عيادة الأسنان و طبيب العيون والنظاراتي المفضلان عندها بمركب حي الرياض...

تلاشى الجليدمنسابا. سال ناعما و مخمدا جمرات حانقة و انتصر الطفلان على محاسبات الكبار و تحفظاتهم... خالج كل منهما الآخر في محاورة الضيوف وفي إشراكه في التأكيد أو

الاستحضار أو السؤال... هكذا ولج السيد فحص الخالدي دائرة الكلام من جديد، لكنه مصرّ على الاستمرار في النبش حول محيط الشجرة و تتبع فروعها وتاريخها... علّه يضيف الجديد. علّه يخالف الرواية الأخيرة. مستغربا هو الآخر من إصراره و من عزمه، متحديا الاحتمالات المتغيرة والمتجددة.

-★★

ضيوف السيد فحص و زوجته شادية كانوا ثلاثة أفراد من أسرة واحدة. هم من أبناء عمومتها عموما. ابن ابن عم جدها لأبيها. كل مرة تذهب فيه و تجيء بين الصالون و فضاء المطبخ، تحاول أن تراجع نوعية العلاقة و طبيعتها، كما تحاول أن تحفظ سردها بسلسلتها المعقدة في الفهم. تشعر بمسؤولية كبيرة معنويا في حسن الحفاظ على هذه العلاقات. ذلك أن أباها و جدّها لأبيها شكّلا العمود الفقري لشجرة السليمانيين و تمثيليتهم، خصوصا وأن الشجرة الآن مستقرة في أيدٍ آمنة بعد أن انتخب جلهم ابن عمها نقيبا لهم. انتقلت الشجرة لتستقر بين يديه و لتعيش مرافقة لهجرة الأسرة الكبيرة.

راودتها أسئلة كثيرة و مبهمة حول سرّ هذا المجيء و الرغبة في صلة الرحم معها من طرف أفراد العشيرة إذا صحّ التعبير. صحيح أنها التقتْ بهم في بعض المناسبات، لكن هذا الإلحاح على الحضور و هذه الديبلوماسية التي رافقته في الكلام و في مقدماته و في اختيار مواضيع المناقشة المرتبطة به، أثارت استغرابها. فكم من الناس يظن أنه ذكي بتعليمه، لكنه ينسى بأن الذكاء الذي يكون عند غير المتعلم يكون أقوى و أنجع و أكثر عمليا و وصولا إلى الهدف.

حين استقبال السيد فحص للضيوف الثلاثة، همهم بترحاب من تحت شاربيه وابتسم حتى بانت ثناياه العلويتين، خصوصا حينما أهدوه قنينة ماء ورد مقطّر و شمعة مباركة جاؤوا بها مزخرفة و طويلة. لَكَمْ يشتاق الإنسان إلى مثل هذه الهدايا وبركاتها. توحي بعمق التاريخ وقداسة الأشياء. ترتبط بوسائط الشفاعة و البركة و تخليص الذات وتحقيق المراد، ووو...

تذكّر فكرة المزاوكة و هو يصعد درج الطابق العلوي للفيلا، ابتسمت له فتحة الباب ردا على ضحكته و قبل أن يلجها...

لكنه استغرب لليوم التالي لوجود شمعتين كبيرتين أبهى مما تسلّمه هدية، و أكياس تحتوي قنينات ماء زهر و ورد و سبحة متلألئة وأشياء أخرى... خرجت معهم في صباح اليوم الثاني ثم عادت لتستقر بجانب باب المدخل الرئيسي... وجوه متجهمة و عابسة... أعناق متدلدلة و أكتاف متهدلة... الأذرع تراخت منهارة فوق جنبات الأرائك التي استلقت عليها أجساد منهدة و محبطة... على العموم، هو جو لا يوحي بأن الأمور عادية... بعد التحية والسلام، و بعد التوجه لتغيير بذلة هذا اليوم في الخروج، سأل السيد فحص زوجته شادية حول ما يقع، و بيّنت له بأن العائلة المحترمة أتت لزيارة خاصة بالعاصمة الرباط، لكنه خاب أملها فيها.

ـ لقد جاؤوا خصيصا لزيارة سيدة تسمى الشريفة لكي تقضي لهم مآرب و مصالح. يبدو أنهم لم يستطيعوا تحقيق شيء منها. و المشكل أن مشكلتهم تحوّلت إليّ أنا.

ـ ماذا يريدون منك؟

ـ أن أتوسط لهم عند ابن عمي النقيب لكي يسلّمهم نسخة من الشجرة و لكي يحصلوا على بطاقة الشرفاء التي تسهل مأموريات عديدة في الإدارات و غيرها... و ذلك الشمع والزهر هو بركة مولاي إدريس حملوها معهم بركة لمن سيقضي لهم مصالحهم...

ـ و لماذا أنت؟ لماذا لا يذهبون عند ابن عمك مباشرة؟ أ ليس هو النقيب؟

ـ ابن عمي هو النقيب فعلا. لكنه يرفض استغلال الشجرة في مثل هذه الأمور. يرى أن العملية إذلال لقيمة الشرف عموما. و أنت الذي اتهمته باستغلالها في قضاء مآربه الخاصة وامتيازات التقرب للجهات العليا.

ـ و ما دورك أنت؟

ـ يعتبرونني الوحيدة التي لها سلطة على ابن عمي، خصوصا و أن أبي و جدي هما من بنيا مجد العائلة الجديد و أعادا لها مجدها الضائع بين هجرة و أخرى. ما تزال الظهائر الشريفة شاهدة على ذلك. المشكل أن بعض الأسر تعاني من ظروف مادية صعبة أو عندها مطالب ملحة في عمل أو ترخيص استغلال في النقل أو فلاحة أو غيرها... لم تعد ظروف الحياة تسمح لهم بالعيش البسيط و العادي. الماديات خنقت الناس. يقولون أن كل الشرفاء بجميع شجراتهم استفادوا من نسبهم الشريف و من شجرتهم وبطاقات انتمائهم، و ما لهم هم فقط الذين لا يستفيدون ولم يستفيدوا شيئا؟ يعتقدون أن مطالبهم عادلة. ربما إذا أتى و حضر النقيب إلى الرباط، و إذا سلّمهم بطاقات عضوية شريفية، سيستطيعون قضاء أغراضهم و الوصول إلى الشريفة و تحقيق طلبهم عندها.

ـ و ما الذي ستقضيه لهم هذه الشريفة؟

ـ الشريفة، كل شيء بين يديها. لقد سبق لي أن التقيتُ بها في مناسبة إحدى العائلات الرباطية. كل المصالح الإدارية و الوزارية في خدمتها. و كل المدراء يهابونها و لا يخيبون طلباتها. و لو كانت خارج المساطر القانونية فالاستثناء يكون لها كَ(فِيتو) خاص... فهمت الآن لماذا يريدون رضى الشريفة؟

ـ أظن أن الحل ليس عندنا هنا. ليبدؤوا بالنقيب أولا.

-★★

(التاريخ يصنع الماضي الذي يحتاجه) فرانسوا دوس

منذ مدة كانت هذه القولة من أساسيات و مبادئ السيد فحص الخالدي في طريقة اشتغاله و تفكيره و تعامله، حتى إنه جعلها قولة داخل إطار معلق كلوحة على الجدار في غرفة مكتبه داخل المنزل.

ابتدأت اهتماماته بالمناهج التاريخية و مؤسسيها، و كانت للتجربة الغربية متسعات من الحرية لكي تخترق بها تجارب بحثها في التاريخ المعاصر والراهن. بل ذهب به اليقين أن الحاضر ينطوي على مجموعة من المفاتيح من أجل الفهم للماضي والعكس صحيح كذلك.

كان لأسماء من مثل لوسيان فيبر و مارك بلوخ و فيرناند بروديل، دور في تطور الدراسات التاريخية و جعلها تسترجع المصداقية أمام الدراسات السوسيولوجية وغيرها. فالحاضر و الماضي يضيء كل منهما الآخر كما قال بروديل.

هذه منطلقات سوسيو ثقافية و نفسية سيعتمدها السيد فحص في رؤية الأمور من زاوية أعمق. سيراجع تناوله للظاهرة من منطلقات تعطي القيمة لمثل هذه الحفريات التي أرادها كاشتغال في موضوع الهوية و تاريخ الأنساب و ماضي المجتمعات.

سيجلس أستاذ التاريخ محاطا بأسلحة مناهجه التاريخية. و هنا سيوقف كل جدلية تتوخى فك الصراعات الكامنة في كل تفاعل تاريخي لكي يعزل و يميز شتى خيوط فردية و نفسية و ثقافية ظرفية وبيئية صنعت الموقف و الحدث.

هذه العائلة الجالسة في غرفة الاستقبال، الممتدة في الانتماء لشجرة تحجب ظلها عن تغطيتها من عراء الخصاص، و التي تحرمها من جني ثمارها و من قطاف فواكهها كأنها

الشجرة المحرمة التي تدعو للإذعان في التبرك دون التنعم بخيراتها، رغم الظمأ و رغم الجوع الفطري إليها، أعطت البرهان على أن كشف أسرار التاريخ يمكنه أن يبدأ من حاجيات الحاضر فعلا و طلباته. هناك تحولات يعرفها الواقع المجتمعي مرتبطة بالظاهرة التي هي بين يديه دراسة و اطلاعا والتي من خلالها يمكن فهم مجموعة من محطات الصراع الماضية. مصالح ارتبطت بأحداث و هجرات و تراتبيات طبقية متغيرة. ارتبط بها التاريخ السياسي المغربي و ربما، بل أكيد أثّر فيها، لكن كشف هذا التأثير مرتبط بكشف هذا التاريخ السياسي الخاص بالمجتمع المغربي.

كان السيد فحص الخالدي و ما يزال من بين أعضاء لجنة الإنصاف والمصالحة، و بحكم انتمائه الجامعي فقد كانت له صفة الملاحظ داخل مختلف مراحل اشتغالها. اقتصر دوره على كتابة تقارير يرفعها للجنة العليا لهذه اللجنة الوطنية. كان على وعي و إدراك بأن نجاح الصياغة السياسية للتقارير هو نجاح لمهمته كملاحظ. بحدسه كان على علم بالظاهر والمبطن لما يكتب و يكتب. بين الممكن تمريره والمستحيل ارتباطا بالظرفية السياسية والرسالة المؤداة، علِم أن التاريخ يستحيل عليه أن يكون موضوعيا مائة بالمائة. لكن التاريخ سيشهد له بالمحاولة والمراوغة و بالقدرة على تمرير رسائل دون جعلها عنصر توتر وعرقلة.

هكذا أصبحت اللعبة نارية بعد أن كانت مائية، حامية ملتهبة وليست مسلّية. و حتى هذه الشجرة التي استغرقت منه الليالي في التسلية، فقد أصبح عالقا بفروعها وأشواكها. كانت فاكهته التي جناها منها هي معرفة و علما، خبرا و حدثا، سردا وقصة. فهل سيراسل أو يهاتف صديقه حدو الربيعي لكي يحلل له الظاهرة في ارتباط مع شجرة المعرفة التاريخية؟ هل كان المنع منعا من معرفة تاريخية ووجودية هو الدافع لتحريم الشجرة على آدم و حواء

كرمزين جنسيين لشجرة الإنسانية؟ تمثل أمامه ابتسامة الباحثة نوال السعداوي، وتنفجر بصوتها الأنثوي من داخل مطويات صفحات مجلاته المتراكمة أعدادا و أنواعا بين صفوف ورفوف مكتبته. داخل مجلة دراسات عربية، في تاريخ حديث، في القرن الماضي، قرأ لها مقالا سنة 1982، تناولت فيه الظاهرة و الإشكالية.

هو الباحث المسكون بالجنون، جنون المعرفة، بالشخصيات التي ترافع نيابة عنه أو رغما عنه داخل غرفة العمليات الذهنية التي يشتغل في فضائها هذا العقل الغريب عن الحواس في الاستنتاج. إنه عقل يعيش خارج الزمان و خارج المكان.

ـ يا للمفارقة !

هكذا يجعل جملته الأخيرة آخر ما كتب قبل أن يسدل الستار على محطة من تسجيل الملاحظات بحبر مداده الصيني المذهب. يُكَلِّمُ أشياءه قبل الانصراف إلى غرفة النوم في ساعة متأخرة تجاوزت فجر هذا النهار من أيام رمضان الأبرك لسنة 1436هـ والذي يصادف شهر يوليوز من سنة 2015 ميلادية:

ـ تصبحون على حقيقة تاريخية جديدة.

-★★

ستبدأ المفارقة فعلا مع مقام هؤلاء الضيوف. سيبدأ النزاع و الخلاف الذي انتجه الحوار. هذا الحوار الذي لم تكن له حظوظ تجانس وتقارب، خصوصا حينما اشتد حول ضرورة الحصول على الشجرة. توترت شادية و طلبت إبعادها عن المشكل المطروح. شدّد الضيوف على دورها، بل أكدوا على أن الشجرة بين أيديها و لا تريد أن تعطيَها إياهم.

ـ مشكلكم مع النقيب، هو من له الحق أو يجب عليكم أن تناقشوا معه المسألة. و حتى إن كانت معي فلا يحق لي أن أسلّمها لكم. واضح.

ـ أنت إذاً ضد مصالحنا. تنتصرين لمن يريدون احتكار الشجرة لأنفسهم. لسنا يهود جئنا لنسلم بين يديك.

أجابته شادية متوترة:

ـ حاشاك. يا هذا، سيد حميد، أرجوك، أنت ضيف عندي و لا أريد سوء تفاهم معك. وليكن في علمك، ليس كل من ادعى النسب هو حقيقة ينتسب لهذه الشجرة. الشرفاء فوق الجميع. مقربون في الأرض و السماء. لا يمكن لكم أن تكونوا شرفاء ما لم تكونوا أعفاء. ونحن لنا شفاعة جدنا المصطفى صلوات الله عليه. و ليس الذهب كالصدأ.

ـ آه. شادية ! لا تنسيْ إنك تجرحين كرامة الإنسان.

يتعالى صوتها غضبا و صراخا و انفعالا:

ـ أنا أتكلم بصراحة، نحن شرفاء و نبلاء و لسنا كعامة الناس و لا علوجا. هؤلاء أبناء عمومتنا من الرضاعة، لا حق لهم في هذا النسب.

ـ أنا أكلمك عن الانتماء البشري. كلنا سواسية. لا يهمني نسبكم الشريف المتعالي. لا تنسي أن إسلامك يطلب المساواة و أن لا فرق إلا بالتقوى. واضح !

ـ رغم ذلك فنحن مطهرون في الأرض و في السماء. كل الأدعية لنا، نحن المقربون إلى الله تعالى.

ـ آه، آه، آه... ليست شادية التي تزوجت هي التي تتكلم الآن. أفهم الآن لماذا غضبت من احتمال وجود روايات أخرى حول الشجرة غير روايتك.

و يتوجه إلى الضيوف بلهجة حادة و صارمة تجعل حدًّا لهذا الجدل العقيم:

ـ أسيادنا، حاجتكم ليست عندنا. و كما ترون، ما أُخِذ بدعوة قضائية عليكم أن تسترجعوه بدعوة قضائية. عدا هذا فأنتم ضيوف مُرَحّبٌ بكم. و لا أريد توترا جديدا. والسلام.

كانت الرسالة واضحة، و كانت شرارة لسوء تفاهم جديد و غضبة جديدة. لكنها لم تكن غضبة دلع أو دلال. لقد أجّجت عقداً جديدة تصعب معالجتها. فبينما قرّر الضيوف جمع رحلهم و هداياهم رغم أن توقيت الآذان قد اقترب بالساعة تقريبا، قرّرت شادية أن تدخل في تعالٍ جديد. هكذا فسّر السيد فحص سلوكها. زادته مناقشة المساء لكي يضيف لها رشقا بصريح العبارات:

ـ كفى عجرفة و أنانية و تباهيا و سادية. تعتبرون أنفسكم أحسن من الناس. ما هذا التخلف؟

ـ نحن أشرف الناس. لكن المشكل فينا نحن الذين رضينا بمعاشرة الناس العاديين.

سُمِع صوت الباب في رضخته النادرة و التي حدثت هذا المساء. دوّى صداها مترجما زعزعة و زلزلة ما و قد وقعت في هذا المنزل. بقي ضوء الصالون مطفأً لا يُرجع انعكاسا لعيون غابت عن القلب. لم يعد السيد فحص ذلك المساء إلى الفيلا. لم يُجِبْ على

اتصالات الهاتف. كان مطفأً هو الآخر غير مشغَّلٍ. و ابتدأت رحلة جديدة في شجرة جديدة ليست مثل الأولى.

-★★

الرسالة:

اختار السيد فحص الخالدي كتابة رسالة طويلة لزوجته شادية. كانت بيانا ثقافيا واجتماعيا. مثلما كانت بوحا صادقا لم يرد من خلاله أن يستمر منافقا في علاقته مع من أحبّ:

{ لماذا أكتب لك هذه الرسالة؟

لك أن تعلمي قيمة الخط المسطور، فهو ليس بخائن. و هو خالد ما دامت صحيفته موجودة. و هو صادق ما دامت كتابته عواطف محبورة و مسقية بمداد المشاعر.

لطالما استحضرت شجرتك و تاريخك. لطالما جعلت لهما حوضا يسبحان فيه. و تعلمين أن سباحتي كانت في عينيك و في حبك. لكن هذه الشجرة، يمكنك اعتبارها ملعونة أو شجرة محرمة، فعلا.

فعلا فقد كشفت عريا حقيقيا. كم من عري لا نستبينه فنغطي عليه بأكاذيب الثقافة واللغة و اللباس و الطقوس. بينما العلاقة بين رجل وامرأة، تحتاج إلى العري الفطري الذي ينسلخ عن كل الأقنعة.

شادية. لقد شكّلَك التاريخ و المجتمع و الثقافة. لا ألومك على تاريخك الشخصي، لكنني لا أرضى أن أكون مجرد أداة فيه، ديكورا شكليا داخل فضاء فيلّتك و مدينتك و عائلتك وطبقتك الصداقاتية. لطالما حلمت بأستاذ جامعي رمزا للمعرفة و العلم، لقبا و شهادة في مقام (مضمّة الذهب) التي تتباهين بها في الفيلات و الحفلات والأعراس...

الآن أفهم جزئيات الأمور و وظائفها الخطيرة. أحاسب فلتات اللسان الفائتة، لأن ما طفا على سطح المرايا يعكس حقائق منسية فعلا.

لقد كبُر الوهم عندك بالقداسة. و مع مرحلتنا العمرية ازداد هذا البحث تعويضا عن فناءاتنا المتدرجة ماديا و معنويا و وجوديا.

كان عليك أن تدركي رأسمال السعادة الحقيقي، أن تحافظي على جوهر الحب و العلاقة، أن تحترمي كرامتها و كرامة مَنْ أحبَّك و عاشرك لأزيد من خمس و عشرين سنة. ربما كان علينا أن نفترق قبل أن نبدأ. كان عقلي يحثني على ذلك. ربما عقلك كذلك. لكن عيبنا هو درجات الجهل التي تغلف العقل و تنبؤاته. من منا كان يعرف ماذا يريد بالضبط؟ لا أحد يعلم أو يصل إلى المطلق.

الآن، يمكنني أن أرسم لك الزوج الذي كنت تريدينه. ربما هذا الذي أنا، انتهت صلاحيته. لا أريد المزيد من النفاق. لا أطيق ثقافة قروسطية تؤمن بخرافات القداسة للبشر. لا ألوهية في البشر، لا دين يؤمن بطبقية و ميز عنصري و لا قبلي.

كان بحثي و لا يزال حول الشجرة، تأثيثا و تزيينا لفستانٍ يُجمّلك ويبهجك، و ليس شيئا آخر.

لا تظني العملية تمسُّحا بأعتاب شريفة أو أعتاب الشريفة. أنت أميرتي في الحب نعم، امرأة اللامعنى داخل سحابة الوهم و وهم القداسة.

إن هذه الشجرة ملعونة فعلا بحكم أنها جعلتني أغوص في رؤية مرآة الحقيقة الداخلية لشخصيتك و أفهم منطلقاتها الصادقة و الكاذبة. يوم طلبت مني هذا الاشتغال بدأ عدٌّ عكسي لمحاكمتك داخلها. لقياس درجة براءتك من منطقها المجحف تاريخيا. هناك من يريد منها هذا الدور التقليدي. و هناك من يرفضه. بين إسلام التاريخ و إسلام الثقافة، أقف أنا بشهادتي الصريحة.

لن أطيل. ابحثي لك عن موطئ قدم في جنةٍ تختارينها. ظلالي موجودة خارج شجرة خلْدك و شرفك.

لا تزال ثريتاه هما: شادية و رانية.

توقيع: مَنْ أحبَّ.

-★★

طيب:

سأخطّ أولا مقدمة ضرورية و أسجلّها صوتيا في نفس الآن:

الساعة التاسعة و النصف صباحا

داخل مكتب عيادة الدكتور كمال البراني.

الجلسة الأولى

تسجيل صوتي مفتوح:

" اسمي فحص الخالدي. 55 سنة.

من مواليد مدينة الجديدة. نشأت بمدينة الدار البيضاء و درست بها. أب تاجر من منطقة دكالة، و أم يهودية الأصل. أخ متوفى بإرادته منتحرا ببلاد المهجر. متزوج و أب لبنت في الرابع و العشرين من عمرها.

في البحث التاريخي أجد أن الأب منحدر من قبيلة أمازيغية قديمة تهوّدت قبل الإسلام.

في تفسير زواج الأب بالأم، ألاحظ شبه تعاطف و مواساة لجروح اجتماعية و نفسية.

في وفاة الأخ، أجد نقمة المجتمع و استطاعته طعن نفسية الفرد و الانتصار لثقافة الحقد والميز و الإقصاء."

يجلس الدكتور على أريكة زرقاء مقابلة للأريكة التي يبوح فوق مقامها السيد فحص، بينهما طاولة زجاجية مستطيلة فوق بساط زربية بزركشتها الفارسية الجميلة. بنظارتين رقيقتي الإطار، حيث لا مقبض حديدي لزجاجهما. بذلة زرقاء داكنة و لامعة. حذاء لامع كذلك. أناقة مسجّلة في هيأته و هندامه. ابتسامة يبدو عليها القياس المطلوب في نجاح كل تواصل. هي حركات دقيقة و محسوبة.

أما فضاء المكتب فبأجنحتي مكتبة موزعة بين رفوفها، و لوحات وشعارات مكتوبة ومعلّقة على جدرانها الثلاثة. و يبقى الجدار الذي يحتوي فتحة الباب الخشبي السميك والمغلق صافيا في لونه الأبيض وخالصا من كل مسمار يوحي بإمكانية تعليق أو توقيع على حائطه. ما أمكن للسيد فحص أن يلاحظه حين جلسته الأولى و في بدايات الاستعداد لبوحها. بينما لم تثره الإنارة في البداية و لا أشياء أخرى كذلك.

قام السيد كمال البراني بإعادة تشغيل جهاز التسجيل للبوح الأول، وطلب من السيد فحص التعقيب أو التوضيح أو الإضافة الممكنة على ما سُجِّل.

و كان التسجيل الثاني دائما تداعيا حرا و كلاًّ مسترسلا ما أمكن، مدته عشر دقائق فيما الأول استغرق خمس دقائق.

" أشعر بالاصطدام بين جدارين و ثقافتين، هي حداثة تحتويها وتبتلعها تقليدانية مميتة. أوضّح أكثر: هناك سياق اجتماعي يحتضننا كأفراد، لكن هناك شراكا قديمة ينصبها قرش مفترس يقبع و يتربع في قاع المحيط والنفسيات، شراك تجتر الأفراد ليكونوا ضحايا لها."

بعد صمت دام لدقيقة تقريبا، لاحظ خلالها السيد كمال البراني قسمات وجه معيده وحركات أنامله. بينما كانت ابتسامته محترمة و يداه ثابتتان في قبضهما على طرفي قلم مدادي رمادي اللون و لامع في معدنه، كانت نظرات السيد فحص تغوص في أعماق زوايا لامرئية داخل فضاء المكتب. استرسل الكلام من جديد في هذا التسجيل والاستماع الثاني:

" شخصيا، و يمكنني أن أعيَ ذلك، سئمت من درجات النفاق الاجتماعي السائدة داخل طبقات المجتمع. انتظرت كل هذه المدة من الحياة لكي يتشكّل مجتمع عصري و حديث،

يغسل جسده من أدران الماضي ويتخلّص من ألبسته المهترئة، فما وجدت إلا تراجعا وانتكاسة..."

في إعادة الاستماع للتسجيل الثاني كانت تعقيبات السيد كمال البراني خفيفة و عامة، لكنها في نفس الآن مختبرة لملامح محاوِره الذي يومئ معها أكثر مما يجيب بلسانه، و كأنه يسمع كلامه لأول مرة أو يكتشف ذاته بعد فقدان وعي لمدة طويلة.

ضامًّا صفحتي يديه، و واضعا لهما بين مفرقي ذقنه و شفتيه، متأملا سطح الطاولة الزجاجية بين الأريكتين و الجلستين، يتأمل السيد كمال اللاشيء هنا و هناك. يغير من وضعية جلوسه مستلقيا على الجهة اليسرى للأريكة، محوّلا سبابة و إبهام يسراه ليقبضا على طرف نظارتيه، بينما كانت اليمنى تحاول القبض على فكرة في الهواء لفتت في انبساطها نظر السيد فحص. و تدخّل السيد كمال أخيرا:

ـ هل يمكنك أن تبين أكثر ما تعنيه بكلمة شخصيا؟ أمور شخصية؟ حياة شخصية؟ ماذا كذلك؟ طبعا إذا رغبت في ذلك. يمكنك تأجيل هذا السؤال والجواب عنه. لا مشكل في ذلك.

يهز كتفيه تحديا و استصغارا للمسألة. يفتح ذراعيه كأنه يستقبل موج بحر في مد وجزر، و يستأذن في الكلام. هكذا يبدأ التسجيل الثالث لهذا اللقاء الأول:

" ما دامت جلسة مفتوحة للصراحة، سأتحدث عن الزوجة أولا. لكن... أظن سأؤجّل ذلك. سأتحدث عن طفولتي..."

يسود صمت جديد. يبدو قلق و بريق في عيني السيد فحص، كعاصفة هادئة تستجمع كثافة غيومها الرمادية، تنشر السكون المفروض على الكائنات غير المرئية. زوابع صامتة ربما. ساعة كبيرة على الجدار، رمز باهت فوق رقم ستة. هذا الذي يخالف ما سواه لونا ـ

هو رقم بلون أبيض وحجم أعرض. أما الإحدى عشر المتبقية فبلون أسود قاتم. يلاحظ غياب العقرب الصغير الذي يشير إلى توقيت الساعة. هو عقرب الثواني الذي يأكل من الوقت كدودة تقضم من أوراق شجرة خضراء.

استرسل السيد فحص في الكلام و بصرُه مركز على المحيط الدائري لساعة الجدار. بعد مرور خمسة عشر دقيقة تعمّد السيد كمال النظر إلى ساعته اليدوية، كانت رواية السيد فحص قد وصلت بحكيها متنقلة من مدينة الجديدة إلى بدايات جحيم و فقر إلى مدينة الدار البيضاء.

ـ انتهت حصتنا سيد فحص.

شعر السيد فحص بالغربة في تفجير ما تبقى من الكلام. ليتّه استطاع اختزال قياس الزمن. ليته غاص في ساعة الجدار بدل الساعة اليدوية لطبيبه.

ـ هل يمكنني أن أطرح سؤالا؟

ـ تفضّل أستاذي العزيز.

ـ لماذا غاب عقرب الساعة.

ـ في الحقيقة، هي إشارة إلى أن الزمن يأخذ من حياتنا و وقتنا ما لا نعيشه و لا نستغله منها. نضيع كثيرا من الوقت في ما لا قيمة له وهمًا أو خطأً. نلتقي الأسبوع المقبل إن شاء الله.

★★

تتلقى السيدة شادية سليمان إجابة نصية بواسطة الهاتف المحمول على رسالتها التي بعثتها كتابة و صوتا عبر الوسائل التي يتيحها الأنترنيت والهواتف الذكية اليوم:

ـ لك أن تفعلي ما تشائين. اعتبريني في إجازة مفتوحة. و لا تنسيْ أن تبقى رانيا بعيدة عن كل هذا...

هو قرار إجازة و سفر إلى مدينة مكناس. رغبة في زيارة العائلة الكبيرة بالمنطقة. في رسالتها اشتكت من أصوات غريبة تسمعها بمدار الحديقة. حفيف أشجارها و أوراقها تقشعر معه مسام جلدها. أرق و سهاد يفاجئانها مباشرة بعد أقل من نصف ساعة من خلودها لنومها. شعور مقفر يرعبها في عزلتها، ما دام الزوج غائبا عن سكنها. تقلُّب يومها بين فصول مزوبعة و متناقضة، تعيش فيه لحظات الهدوء و الصمت كما الانفعال والانزعاج كما الكوابيس وفوبيا الأوهام و التخمينات. كانت تتمة السيد فحص لرسالته الهاتفية حول كل هذا:

ـ لك أن تزوري طبيبا نفسانيا. أما أنا، فإنني اخترت جلسات طبيب نفساني بمدينة الدار البيضاء.

كان اختيار السيدة شادية سليمان مغايرا لاختيار زوجها فحص. إخراج صدقات يستفيد منها فقراء و فقيرات مكناس و زرهون. تفقد أحوال أبناء و أولاد عمومتها، صلة أقاربها... اختارت كذلك جمع شمل العائلة الكبيرة و لَمِّهم في حفل سماع و مديح و تلاوة الطُّلْبة للقرآن الكريم بمنزل العائلة بمكناس.

طقوس بخور و أمداح و حضرة و جذبة و دعاء و استحضار لفضائل أهل البيت وشجرة الشرفاء. توقيع اعتراف احتفالي يشرعن قناعاتها وشعورها. رغم البعد عن منزلها بالرباط،

ورغم التوتر في علاقتها مع زوجها، سادها شعور بالارتياح، و استفادت من نوم طبيعي جديد وانتعاش روحي أدخل الطمأنينة على قلبها.

في رسالة نصية توصّلت بها من زوجها:

ـ الفيلاّ في أمان، و الحديقة هادئة. لك أن تمكثي ما تشائين من إجازتك المهنية بمكناس. سأعود إلى مدينة الدار البيضاء لالتزامات شخصية. والسلام.

قد يكون الكلام سيفا كهربائيا يفلق سكون الكون فيفرقع ذراته وشحناته برقا و رعداً. ذاك ما عكّر صفو مناخ السيدة شادية. لمْ ترضَ بهذا التجاهل، بهذه اللامبالاة. لم ترض بأي تنازل. لم تقرّ بأي خطإٍ قد تكون ارتكبته تجاه زوجها. تؤمن بما قالته و تعتبره حقيقة لا عيب فيها. العيب فيمن لا يرضاه و لا يقبله.

بالنسبة للسيد فحص، يعتبر المسألة عجرفة من طرفها، و أصولية ثقافية نائمة في عقليات مثل عقليتها، تنتظر مناخ سيادتها و تأسيُدِها وتبهرجها. يُفجّر غيضه كتابة. قد يسأل نفسه:

ـ لمن أكتب؟ للتاريخ؟ للنفس؟ للآخرين؟ ربما من أجل الكتابة.

ضمن أولى الاستنتاجات التي بلورها مع الطبيب النفساني كان اعتبار العقدة الحاضرة أنها عقدة تاريخية و ثقافية، عقدة موضوعية تفاعلت معها الذات بتوتر. من المريض الذي يحتاج إلى العلاج؟ هل الفرد أو المجتمع؟ ربما يحتاج الفرد إلى تحقيق التوازن. و هذا ما هو مطلوب في علاقته مع زوجته شادية. ستكون المشاعر مشتغلة بحراس قيمها وأخلاقها وكرامتها عند الطرفين. ستكون رانيا هي البلسم الذي يقوم بكيّ الجراح غير المندملة وطيّها. حضورها خلال أسبوع الاحتفال بعيد الأضحى، استغرق ثلاثة أيام فقط، لكنها كانت كافية لكي تعيد المتمرّدين إلى جحرهما و إلى البحث عن توازن جديد داخله.

★★

منذ مدة حسمت العائلة في طقوس الاحتفال بالعيد الأضحى. حينما كانت رانيا صغيرة كان الكبش يتخذ له مقاما بزاوية ما من الحديقة، يندمج في طقوس لعب رانيا ومحاورته وتقديم الأكل و الشرب له. مع كِبرها تحوّل ذلك الاهتمام إلى رغبة في السفر و اكتشاف الطبيعة. تساءلت العائلة بعد مدة حول هذا السر. لماذا نشتاق إلى معانقة الجبال والوديان و الأشجار كبديل خلال يوم العيد و ما يأتي بعده؟ لم تبحث عن جواب، رغم أن السيد فحص كان يحفر و ينقش صخور المادة الخام التي يمكنه أن يعثر عليها، والتي يمكنها أن تتضمن ألف جواب... إنما بالنسبة لرانيا و أمها شادية كانت المسألة اختيارا بين سعادتين ومرحين. فالعيد الذي يحتاج إلى نحر و دماء و غدر الحيوان الذي نألفه أياما قبل صباح التضحية، بدأ يخلق للأنثى فزعا و خوفا. ربما الأم و البنت و تواجدهما لوحدهما في طقوس الفيلا.

أما السيد فحص فقد كان من بين المقترحين لفكرة السفريات خلال أيام العيد. في مناسبة، تمت الأضحية و جُعِلتْ في المبرد، و تهيأ الكل للسفر باتجاه مدينة الصويرة. في مناسبات ستكون زيارة العائلة هنا وهناك مناسبة لصلة الرحم لما تبقى من يوم العيد... توالت السنون وكبرت العقول و تعوّدت العائلة مثل عائلات أخرى على جعل الأضحية صدقات و التبرع على بعض الناس بما يساويها، وفي مرحلة دراستها الثانوية كانت تأخذ رانيا أمها معها لزيارة بعض المؤسسات الخيرية وإدخال لمسة فرحة على النازلين بها من مسنين أو أطفال يتامى أو مهملين...

تاريخ العائلة و قد ألِفته بهذا الشكل، سيحتاج إلى صيغة جديدة لكي تعيشه من جديد. اختارت السيدة شادية قضاء العيد بالمنزل بالرباط. أوصت على كبش ملائم كأضحية.

هيّأت ظروف الاحتفال به. دعت بنت خالتها و عمتها لكي تحضرا معها هذا العيد. ما دامتا تعيشان لوحدهما بمدينة مكناس لِمَ لا تغيير الطقس و الاجتماع معها بالرباط من أجل هذه المناسبة السعيدة. وطبعا ستكون المفاجأة لرانيا التي جاءت من فرنسا ليلة العيد لكي تقضيَ الثلاثة أيام و تعود لمتابعة تكوينها.

عيناَ السيد فحص تفحصان ما يجري بمجهر العقل و التاريخ. تلاحظان في صمت من زاوية حياد لهذه الحركة الجديدة و الأحادية في القرار والتنزيل. تخريجته لكي يحافظ على مسافة سلام و مناخ وئام جعلها في متابعته لحمية فرضها عليه الطبيب. منعه من خلالها من أكل اللحوم الحمراء. نظام غذائي نباتي ما أمكن، مع قليل من اللحوم البيضاء إلى جانب لائحة من المقادير أو الأنواع الممنوعة أو الموّزعة خلال الأسبوع...

مرت مدة ليست بالقصيرة لم تغيِّر مما وقع شيئا. منطلقات الزوجين سارت على خطّين يبدوان في تباعد. شعرة رقيقة تربطهما تكاد لا ترى تماسكا أو تقطعا. يحتار كل منهما في التفسير و البحث عن الحل. ربما الحل جذري كما تذكّره الدراسات الطلابية به كمصطلح. لكن التاريخ لا يمكنه أن يعود لنقطة الصفر. لم نمتلك وعينا من اللاشيء واللابداية. لولا هذا التاريخ ما كنا نمتلك هذا الوعي. هكذا يفكّر السيد فحص، وهكذا يتماشى مع الواقع من خلال ما استنتجه مع طبيبه النفساني ومع صديقه حدو الربيعي كذلك. البحث عن توازنات. العقدة تاريخية وثقافية اجتماعية تتفاعل مع الذات. يوم يتغير الواقع الاجتماعي والثقافي يومها تتغير العقليات أو بالموازاة بشكل متداخل. قد يكون اغترابا داخل الذات أو المجتمع، إنما ما باليد حيلة. هكذا هي الحياة.

يختار السيد فحص قضاء ما بعد الزوال مع ابنته رانيا. حينما اقترح عليها جلسة شاطئ في مقهى ما، سارعت إلى الموافقة و القَبول. بينهما تفاهم حدسي حول ما يحبانه في أن يكون.

بين البنت و الأب ابتسامةٌ تشكل اللغة و نظرةٌ تشكل المعنى. كانت أمسيتهما لحوار مفتوح وجديد. و كانت شادية في موقع مشتعل بين قوة التحدي و الصمود وضعف الاستسلام والإذعان و الخنوع. تنحبس الدمعة كما الجمرة في أمكنة ما من نفسيتها وعينيها. تعوّضها بتكلم بصوت مرتفع يتجاوز صداه المألوف.

لو استطاع السيد فحص فقط أن يكمِل بحثه في التاريخ حول الشجرة. لكنه اكتشف فجأة على أنه من العدل أن يبحث في جميع الأشجار و في شجرته كذلك. احتاج إلى جلسات الطبيب النفساني لكي يعيد تأثيث فروعها و أغصانها و يستبين جذعها وفاكهتها و ألوانها. أعاد الحياة لها فعلا ونسبيا. تغيرت جلسته و محاوراته. أصبح أكثر اختلاء لرومانسياته ولغروب الشمس و بعض الأحيان لشروقها. هدأت دواخله من كل انفعال مع ما يدرس. فالتاريخ يكون موضوعيا بجعله مادة مختبرية بعيدة عن تأثير أو تفاعل الذات، حتى لا تكون الاستنتاجات شخصية أو تنتصر لهذه الذات.

في جلسة المقهى و أمام زرقة البحر و تلاطم الأمواج، كان الكلام يرسم المستقبل. لا حاجة للمرافعة و التفصيل. تم جمع المستندات والجذاذات والخرائط و وضعها في رفوفها التاريخية.

لا نهاية للتاريخ.

★★

كانت الجلسة بمطعم الفلوكة المنبسط على إحدى شواطئ مدينة تمارة أو هو امتداد لشواطئ الهرهورة كلاهما سيان. كلاهما مفاتيح الروح لكي تحلق مع زرقة السماء وروعة المحيط الأطلسي. كلما سنحت له الفرصة للاختلاء بنفسه أو الترويح عن النفس كان مجيئه إلى مطعم هذا الفندق الممتد بمرافق غرفه الأرضية و مسبحه و مطعمه و حانته.

كم من مرة رافقته رانيا لهذه الجلسة. منذ طفولتها و مع أمها شادية. ها هي اليوم تجلس هادئة كامرأة و ليس كفتاة صغيرة. لم تعد الصبية التي كانت تراوغ المجمع لكي تنزلق كسمكة في الماء لتغطس و تغوص وتعود مبللة تشرك باحتضانها الأب و الأم و من كان ذا حظ في الجلسة ببَلَلِها و عناقها و صراخها المبتسم. تُنْزِل الكبار من علياء قسوة مواقفهم وكلامهم وجداراتهم الممتنعة في التخطي إلى انسدال رمل و انكبابه دررا ذهبية متراقصة تسامحا وفرحا. رانيا شعاع الشمس المذوب لكل جليد، والهواء العليل المبرّد لكل جمر. هكذا تجلس الآن أمام أبيها مدخلة فرح ابتسامات جديدة على محياه. لكم اشتاق إلى فرح صادق و حقيقي مثل هذا.

مسار رانيا الحياتي تغيّر منذ ذهبت إلى فرنسا. ارتباطها و علاقة خطوبتها بالسيد سعد الماجدي و قد فسِخَتْ لاعتبارات خاصة لم تُخبِرْ بها عائلتها إلا في وقت متأخر تجاوزا للصدمة أو المفاجأة. انكسار وجودي أرهب الفراشة المقبِلة على شمس الحياة. لم يترك لها أن تصل إلى قرص الشمس معانقة. أجّل لها ذلك الفرح لكي تعاوده في حياتها. لكنها تحتاج إلى شفاء من شقاوة مشاعر قديمة لم ترقد بعد في فؤادها.

لم تتوقع رانيا أن يصيب المرض من رسمت معه خطة حياة و عمر حياة. هذا السرطان الذي يزحف متى يشاء، فيحصد ما يشاء بصمت و هدوء وينسحب دون أن يحاكمه

أحد و دون أن يفاوضه أحد في التأجيل. شاءت الأقدار أن يصاب سعد بمرض سرطان و ورم خطير استدعى التدخل بسرعة لكن بدون جدوى. كان قرار سعد الماجدي شجاعا. لم يخبر أحدا و لا حتى رانيا. لم يطلب منها مساندة. طلب منها فراقا لأنه لا يقدر على الاستمرار في العلاقة التي لا يرتاح فيها. هكذا جعل الصدمة خفيفة على قلب رانيا. له الحق في ذلك. هكذا رسمت بوعيها قراره. هي الأخرى تنازلت عن كم من رغبة داخلية و اعتراض داخلي على هذا الاختيار. تنازلت من أجل المجتمع و من أجل الأسرتين و من أجل أمها على الخصوص. صوتها الأنثوي لا يخدعها. حينما طلب منها التراجع عن العلاقة و الخطوبة، استفسرته بتأنٍّ، سمعت أجوبته غير المقنعة و لكنها حاسمة عاطفيا.

ذلك التوقع و ذلك الاطلاع على مرض خطيبها السابق لم تكن لتعرفه إلى حدود جلستها الآنية مع أبيها في مطعم الفلوكة لأن الخبر سيأتي مع الوفاة.

ـ الواقع أنني سأختار مسارا جديدا في حياتي. هذا التكوين بفرنسا فتح لي آفاقا جديدة ومهمة. سأكمل مشواري الدراسي و المهني بين المغرب و فرنسا. وداعا كندا.

ـ الحمد لله أنكما لم ترتبطا ذهابا إلى كندا، لكان الفراق هناك أقسى وأصعب.

ـ صحيح يا بابا. لكنني ألاحظ برودا عاطفيا بينك و بين ماما. هل حدسي صائب؟

ـ لا تخلو علاقة بين زوجين من مراحل توترات أو برود أو عدم تفاهم. هذه سنة الحياة. أو تعلمين، هناك نسبية في كل شيء. لا يجب أن نحفر بعقلانية كبيرة من أجل أن نرتب للحياة مبتغانا منها. لا كمال إلا لله طبعا.

ـ ما قصة العمتين و كبش العيد؟ ألاحظ طقوسا قديمة تعود للظهور في الفيلا.

ـ تلك رغبة ماماكِ. عندها حنين إلى جو العائلة و الأسرة الكبيرة. نوستالجيا المرحلة العمرية. إنما أؤكد لك لا دخل لي فيها. أنا بريء منها.

ـ بابا.

ـ نعم رانيا.

ـ لماذا لا تتقدم إلا الانتخابات هنا بمدينة الرباط؟

بقدر مفاجأة السؤال بقدر الضحكة التي رافقتها عند السيد فحص. لم يكن يتوقع مثل هذا السؤال، لكنه يدرك صدوره من ابنته العزيزة على قلبه. لطالما تناقشا مواضيع السياسة والتاريخ و الثقافة و غيرها. حرجه معها أنه كان يحتاج لصدق في القول والجواب. لا يمكنه و لا يتصور إمكانية كذبه على ابنته. آخر محطة لاختبار الصدق الداخلي إذن. يعجبه هذا الاستنتاج و يرتاح له. يقارنه مع جلسات العيادة النفسية، لا يجد بينهما تساوٍ. أفضل ما وهبه الوجود و حقق له السعادة فيه هو حضور ثرياه (رانيا).

ـ سبق أن ناقشنا الأمر أظن. سبق أن سألتني عن الديمقراطية وأشكال تصريفها. لا أجدني مناسبا كلاعب في الفرق الحالية. لست مهيأ للملاكمات و الملاسنات والمدابزات...

تنطلق ضحكاتهما معا. يلمس فنجان قهوته فيجده و قد بُرد. يستأذن في مناداة نادل المطعم:

ـ هل لي بكوكتيل بالبراندي من فضلك.

ـ أعتذر سيدي فمناسبة العيد تمنعنا من تقديمه في المطعم للمغاربة.

ـ آه، نسيت.

هامسا و مستلطفا اقترح عليه النادل الحصول على طلبيته بالمقصف الداخلي.

ـ لا، لا. شكرا. لا حاجة بنا للاختباء بعد اليوم. سنغير المكان أفضل.

احتاجا إلى جولة عبر الطريق الشاطئية المؤدية إلى مدينة بوزنيقة والمحمدية. جولة أخذت منهما الثلاث ساعات و زيادة، كانت عامرة بمحاورات كثيرة و متنوعة. اكتشفت من خلالها رانيا أن باباها يتكلم كثيرا عن ماضيه الشخصي بتفصيل أكبر. ارتاحت لهذا الاكتشاف والسماع الجديد. برقت عيناها فضولا و معرفة. بين الصوتين والمتجاورين في جلسة السيارة، كان كل منهما يسقي الآخر بجرعة حب و أمل في الحياة واطمئنان الفؤاد. سيعودان لجلسة ما بعد وجبة العشاء بالمنزل. إنما هذه المرة كان الموضوع أكثر تجريدا وعموميات.

★★

يلاحظ السيد فحص التغيرات التي بدأت تطرأ على شخصية ابنته رانيا. يتذكر صحبته لها منذ كانت حملا صغيرا و وديعا. بين طفولة ومراهقة و شباب تعيشه اليوم، تغيرت كذلك أفكارها حيث أصبحت أكثر واقعية و أقرب إليه من الخيال. يتتبع خيوطا مشتركة يتقاسمانها، يجدها كثيرة. الحركات و علاماتها السيميائية، الحواس و توظيفها المستقبِل، بعض من صيغ الضحك و لو أنها تبدلت في جزء كبير منها، لازمات التعليق بين تعجب واستغراب و استلطاف و غيرها كثير كثير... أمور كانت ستكون عادية لولا هذا التباعد المكاني الذي يفصلها ماديا و جغرافيا. لم ينكر رحيق روحها أمها شادية، لكنه يتخذ مسافات فرضها عليه عقله و تحليله. قد يردّ اللوم على البحث العلمي وحقائقه التي يكتشفها. يبتسم كلما تذكّر المثل البدوي (عيب البحيرة تفتاشها)، يقارنه مع ملاحظات الكبار في السن و طريقة ردعهم لكم من أسئلة يطرحها الصغار فضولا ورغبة في التحدي أو التجاوز للكبار...

يلوم نفسه كذلك. أ لم يمارس هو كذلك نفس الطريقة مع صغيرته وحتى في عدم حديثه عن خلافاتهما هو و شادية، و التي بدأت تضيق خاطرا و سعة صدر في مرحلتهما العمرية. وضع نفسي قد يكون عند جل الأزواج، لكنه اتخذ طابعا تحليليا و تشريحيا للحالات المرَضية ثقافيا و اجتماعيا. ربما إذا أردنا أن نتعايش علينا أن نقوم بدفن الماضي. صحيح ما قلتَه مخالفة سيد عبدالكريم غلاب في روايتك (دفنا الماضي). (لا لم ندفن الماضي).

- صحيح.

هكذا يعزز استنتاجه الذهني و بالتلفظ به جهرا مخاطبا نفسه.

ـ رانيا حبيبتي، التاريخ اليوم قد يصبح ذكرى أو لوحة معلقة على جدار. لا حياة فيه بل في الأشخاص أكثر. عُدت أتعامل معه وبالخصوص هذه السنة بمنهجية أكثر تحكما في تراكماته المتسارعة. أصبح التاريخ عندي لوحات و علامات سيميائية و رموزا ثقافية ومواقف نفسية لها مبرراتها الشخصية قبل الموضوعية. أحتاج إلى فهم الإنسان قبل تحليل خطابه.

ـ لا أستوعب كلماتك بابا بأكملها. لكنني أفهم شكليا خيوطك التي تعتمدها. قبل هذا الكلام حدثتني عن التاريخ الراهن أو المعاصر. ذاك فهمته. لكن هذا بدا أصعب. تُراك قاسٍ مع طلبتك؟

ـ بالعكس حبيبتي. ربما فضيلة البحث العلمي أن لا نسقط في الاعتبار الأخلاقي و لا أحكامه.

ـ صحيح. هذا أفهمه. فدراساتنا التي نقوم بها و طرق تنزيلها من أجل التنفيذ لا تؤمن بالعاطفة. منطق السوق و المنافسة. لذة الانتصار والفوز بالصفقة، التباهي أمام المنهزم بالإنجاز... ياه! أكتشف للتو قساوة هذه المبادىء. قبل هذه اللحظة كنت أعتبرها امتيازات و قيم عالمية راقية. الآن، كنت أريد توريطك في قفص اتهام، عادت التهمة لتلتصق بمجالي أنا.

ـ الحمد لله على أن أسواقك أنقذتني من مقارنة أو منافسة صخبها.

ـ بابا. ماذا تعني بالعلامات و اللوحات؟

ـ يا رانيتي...!

ـ يا باباي. أرجوك اشرح لي. ألا تلاحظ أن الليلة رائعة بنجومها، و نساء المنزل منشغلات بدوارة الأمعاء. عندي معك ثلاث ليالٍ بالتمام و الكمال، لا أريد تضييعها في وصفات الطبخ. أرجوك بابا.

يشعر السيد فحص (باباها) بأن هذا شبه ابتلاء. جدلية ضرورية لاستمرار قانون الحياة والإنسان و الثقافة. هذا هو التاريخ الفعلي. بحدسه أجاب نفسه داخليا و ذهنيا. يتأمل. يأخذ نفَسا مع سيجارته. يعطي مسافة زمنية لجلوس نسوة المنزل و هدوئهن.

ـ اسمعوا لبابا، سيجيبني عن سؤال.

ابتسم ناظرا إلى الكل. سرح بعينيه بين عيون الجميع بين فضولية ومتغربة و متخوفة... صاغ جوابه بحسب المقام و اعتذر داخليا لابنته عن تغيير خطة الجواب.

ـ بمناسبة حضور العمات الجليلات، سأتحدث عن لوحات مدن وتواريخ، و العلامات هي إشارات تبارك ما وقع قضاء و قدرا. أتتذكرين رانيا كيف تبدأ كل حجاية؟

ـ كا يا ما كان حتى كان آ سيدي... هكذا؟

ـ كان يا ما كان، حتى كان في قديم الزمان...

★★

قهقهات الشريفات تُسمع من الزوايا البعيدة و المغلقة لفضاء الفيلاّ. سماعهن لاسم غريب في الحكي، (امّي يسّة). فعلا (هن) لكون شادية انضمت لهما في ردّات الفعل المشتركة. لكنها كانت على إدراك بوقع ذلك الضحك على الجليسين رانيا و السيد فحص. لم ترِدْ شادية أن تبْدي مخالفة لضيفتيها. حتى لازماتها اللفظية و التعبيرية قد تغيّرت بعد مجيئها من إجازتها التي قضتها بمدينة مكناس. حتى تعاملها مع الخادمة ومع حارس الحي أو الإقامة... لا يُسْمع منها سوى نهر و عتاب لعدم إنجاز أو سوء طالع في الكلام أو التنفيذ للأوامر...

كل هذا لم تلاحظه رانيا بشكل جيد، لكن الذي أغضبها هو ردّات فعلهن على تسمية جدتها من جهة أبيها، و التي لم تتعرّف عليها أبدا لكونها توفيت منذ أربعة عقود و زيادة. كان السيد فحص ما يزال يافعا و ميتما بفقدان أبيه منذ مدة طويلة في طفولته التي لم تعرف حضورا كبيرا للأبوين فيها و لا لحضانتهما. و بقدر ما كانت تحافظ على ابتسامتها وهي متابعة لحكي باباها، بقدر ما كانت تحوّل نظرَها لائمة الثلاثة وحازمة في نظرها تجاه ماماها لكي توقف هذه السخرية.

كان السيد فحص يرسم لوحات كاريكاتورية متعمدة. يريد رسم علامات معها. يتوخى نزع أدلة سلوكية تترجم النفسيات و العقليات وتخرج خبايا دواخل ذهن الإنسان و قيمه التي تؤسس شخصيته الإنسانية. وعي أدركه و استمر فيه زحفا على واقع لكي يبنيَ وعيًا جديدا متجاوزا لهذا الواقع. قد يكون تفسلفا، لكنه أكيد ممارسة صعبة داخل ثقافة مجتمع تتأرجح بين النضج و التخلف الهجين.

إخراج اللوحة و هذه الحكاية أمام الثلاثة فكّر فيه فعلا. أراد أن يواجههن بنقيض ما اكتشفه في تعلقهن بالقداسة المرتبطة بالشجرة وأوهام الشجرة المقدسة. هكذا قناعته الآن و هو مستمر في الحكي ومبتسما لرانيا جميلته في القلب و النظر:

((امّي يسّة. تحويل الاسم من يزة إلى يسّة. هذه الأم اليهودية الأصل التي أنجبت هذا الجالس أمامكم. عشقت سائقا لشاحنة من دكالة ومن مدينة الجديدة بالضبط. ارتبطت تجارة أبيها بضواحي وادي درعة في تخوم الأطلس الصغير بشاحنة ابّا علال الدكالي. تسمية لا تدل على كِبَر في السن بقدر ما تدُلّ على تقدير أسرة (يسّة بن كادار) لهذا السائق الشاب الذي كان يضمن نقل سلعتها لمدينة الدارالبيضاء وعودته لهم بقيمتها المالية. قيمة لم تدرك العائلة إن كانت شيمة خلقية أم تعلقا بعيون أمّي يسّة. ها هما يتساويان في الأبوة والأمومة في حكايتنا: أمّي يسّة و ابّا علال.

يوم ارتبطت يسّة بعلال لم يكن بمقدور العائلتين وقف هذا الارتباط. تم الزواج و تم الاستقرار بمدينة الدارالبيضاء. هاجرت أسرة بن قادار خارج المغرب، ثلاثتهم جدي وجدتي من جهة أمي و خالتي أخت يسّة أمّي، بينما بقي خالي لمدة بالدارالبيضاء قبل أن يذهب لفرنسا. بعد إنجابنا أنا و أخي يوسف توفي الأب في حادثة سيْر. تيتّمنا صغيرين. أنا في الحادية عشرة من عمري و يوسف في السادسة منه. اعتراض العم على مغادرتنا المغرب تجاه فرنسا و نحن صبيين وتأجج الصراع بين عائلة مسلمة و زوجة من ديانة يهودية جعل الحسم في تربيتنا داخل مؤسسة خيرية إسلامية. ربما لا تحمل من التسمية إلا الاسم. لم يتسنّ لأمّي يسة فعل شيء، لا هجرة و لا حضانة أولاد. مرض سريع وسكتة قلبية لم تستطع معهما مقاومة. ماتت بصمت و لم يفطن الجيران لموتها المعزولة إلا

بعد ثلاثة أيام. انتقلت أنا إلى مؤسسة داخلية تابعة لإحدى الثانويات بينما بقي أخي داخل المؤسسة الخيرية حتى يكمل مرحلته التعليمية الأولى.))

ـ ماما... أوقفي هذه المسخرة...*c'est affreux comme comportement*

تفاجأت الضيفتان لردة فعل رانيا. تشنجت و احتقنت النظرات بين الأم و بنتها.

ـ غير معقول هذا الذي أسمعه: حاشاك. ويلي، ويلي... الحمد لله على أصلنا... ما هذا أليست عندكما قطرة احترام و لا تحضّر؟

ـ أعتذرُ بابا عن رد فعلي.

ـ لا عليك رانيا. أنا أحكي لك. أما هما فإنني أعرف احتمالات موقفهما مما أرويه لك.

لم يذكر شادية بإشارة، كما لم يقحمها في اللوم، لكنه لوم ضمني حاضر وقوي في التأثير.

دعت شادية الضيفتين في لباسهما التقليدي إلى غرفة الجلوس لمشاهدة التلفاز، و بقي الاثنان في سمر جديد عرّى المواقف و العقليات أكيد، لكنه طالب بمزيد من الحكي:

ـ رانيا، أنت الآن تعيشين في فرنسا. ربما مؤقتا أو لمدة طويلة إذا قررت متابعة الدراسة والعمل هناك فيما بعد. تلاحظين المناخ الثقافي داخل المجتمع الفرنسي. لا يجب عليك أن تقلقي مما تلاحظينه هنا. لا تقارني بين عقليتين و ثقافتين و مجتمعين. فروق شتى هي موجودة، حضارية و مدنية و فكرية و غيرها. لقد تعمّدت أن أحكيَ لك أمامهن لكي تدركي مستوى وعي المجتمع. هذه صورة مصغرة لأوساط كثيرة لها نفس المواقف المخجلة التي تسمعينها الآن. يوم تزوجت ماماك كانوا يرون الأستاذ الجامعي الوسيم. كانت قيمة الأستاذية يومذاك كبيرة في ارتباطها بالجامعة و كأن الناس تشتري بالمصاهرة مع الأستاذ شهادة تعليمية أو جامعية.

تسترجع رانيا ضحكة خفيفة تعرقل صفاءها حشرجات التوتر الذي تأجج قبل قليل. وتسأل: كيف يشترون شهادة جامعية؟ غريب هذا التصور!

- العملية تسمى بالتعويض. يحتاجون في التجمعات العائلية إلى أسلحة كلام و خيوطه. هي روافد نفسية تكون حاضرة و يتم اللجوء إليها. إذا تكلم الناس عن الجامعة سيقولون عندنا الدكتور فلان. في الجامعة. أستاذ جامعي...

تنطلق ضحكات رانيا و هي الآن أكثر إشراقا كبدر توهّج بعد عتمة ليل أسدل الصمت على ضجيج يوم. فعلا كانت الليلة ناعمة في طقسها في مساء يوم جمعة 25 شتنبر 2015 والموافق للعاشر من ذي الحجة 1436. نسيَتْ ما صدر من النسوة و انخرطت كطفلة في لعبة متجددة و صافية و بريئة من مواقف مبطنة مجتمعيا.

★★

يوسف.

و قد سبق للسيد فحص أن عالج الموضوع قديما مع طبيب نفساني سنحت له فرصة التعرف عليه و على عيادته و حكاية القصة التي آلمته كثيرا. استطاع من خلال هذه التجربة أن يعرف كيفية الولادة الجديدة و المتشرنقة إيجابيا من العدم و الفناء. كيفية مواجهة القدر بالرؤية الإيجابية تحديا لقانون المحو و الانقضاء الذي يهشم دواخل نفسياتنا. الأخ الأصغر الذي عانى نتائج التمزقات الاجتماعية المغربية و شحناتها العدوانية. نزيل مؤسسة اجتماعية تعرّض للاغتصاب في صغره. كان المغتصب يرى شكلا من انتقام من منحدر من أم يهودية. الدليل أن الجل لم يتعاطف مع الضحية. الجلّ تجاوز ما وقع. لام الطفل و لم يلم الراشد. تسلّط الكبير على الصغير. لم يكن الوعي بحقوق الطفل آنذاك في نضجه المجتمعي. علينا أن نقر بأن ثقافة حقوق الإنسان هي الأخرى كانت تقاوم لتعيش وتأخذ الشرعية، ولمّا تزال تكافح من أجل ذلك في الوعي و الواقع.

كبُر يوسف بعقدة الاغتصاب. انتقم بعدوانية من الكبار. مارس عنفه خلال المراهقة ومرحلة الشباب. ويلٌ لمن تربّصه و ضبطه متحرشا بالصغار. رد فعل مبرر في ذهنه. يعلم نزوات المدمنين و المكبوتين. لقد مات القلب الذي يسكن في دواخل قفصه. رؤيته أصبحت أبعد بعد ذلك. كان يرى بأن الحياة لم يعُد لها وجود داخل بلده المغرب. بحدسه رأى أن البعض يرفض هذه الهوية في الانتماء. نقطة سبق للسيد فحص أن ناقشها مع أخيه خلال المرحلة الطلابية. ما يزال السيد فحص يتشبث بكون الهوية انتماء جغرافي. بينما يوسف الأخ الأصغر كان يراها انتماء ثقافيا و فكريا. ربما ما سيقع سيفسر لماذا.

تحمر وجنتا رانيا و تغرورق عيناها و تنتفخ مداخل أنفها. أصبح جسدها بركانا يفور بالدم و يغلي بحرارة متقدة بما يسمع من كلام. لم تكن تدري بأن هذا الحكي في (كان يا ما كان) سيتحوّل إلى مشاهد درامية و تراجيدية مؤلمة. رانيا محمد عواطف فحص ومفترش انبساطها. بحدسها تدرك الألم في الحكي و الحاكي. و تتألم و هي تسمع. لم ترِدْ إيقاف ما تسمع. تحضرها فكرة شنق الضيفتين إن كانتا حاضرتين و متابعتين لما تلا بداية الحكي. لكنها الآن تركز على مسموعها.

يوقف السيد فحص حكيه. يعتذر لابنته عن كل ما تسمعه. كطفل صغير كان يخاف من حكي ما وقع للكبار خوفا عليهم و منهم في آن. الآن امتلك الشجاعة و قام بالأمر. كان يود لو أن زوجته شادية تحضر لمعرفة تفاصيل لم تكن على علم بها فيما قبل. أو على الأقل أن تساند ابنتها في تلقي ما تسمع. فهو في نهاية المطاف جرح الأب وجرح السامع لحكيه. وما السامع سوى رانيا هنا.

ـ أعلم يا حلوتي قساوة ما أحكيه لك. لكنني على يقين أنك في مرحلة عمرية ناضجة وراشدة و حكيمة. أنت الآن زاوجت بين ثقافة مغربية وأخرى غربية. تمتلكين المنطق وتقدرين على استيعاب الواقع كما هو. أريدك أن تكوني أنت مع هذه الحقائق التي تسمعينها. لا مفر لنا من حقيقة أنفسنا. الحقيقة شمس و النفس غربال. و الشمس لا نغطيها بالغربال.

بعد مرور سنوات على نقاشه مع أخيه فحص، أتيحت الفرصة ليوسف لكي يهاجر للديار الانجليزية. لكي يستمر في دراساته الجامعية العليا في العلوم السياسية. كان مناخ الانسلاخ و الحرية المطلقة من قيود وهمية داخلية في وجدان يوسف حاضرا. قطع الصلة بكل الماضي وكل الجحيم الذي يتذكره ألما. وفاء لوعده الذي قطعه على نفسه أمام رفاقه في

الجامعة ـ في جلسة بمقهى حديقة المغرب العربي وسط مدينة الدا البيضاء ـ غيّر اسمه من يوسف إلى جوزيف بعد أن حصل على الجنسية الإنجليزية.

(في مناخ حرية غربية و في استمرار الألم النفسي و أثره البيولوجي، اكتشف يوسف ميوله المثلية و اختارها و مارسها برغبته و عن طواعية دون اغتصاب أو شعور بالإهانة. هجر الاسم و العائلة الصغرى و الدين و المجال الجغرافي. كانت هويته فكرا وثقافة يعيشها كما آمن بها فعلا. لكن يوسف لم يمت داخل جوزيف. استمر يطحن دواخله . صراع داخلي سجّله في مذكراته التي استطعت قراءتها هناك في جنازته بلندن. تحوّل إلى إدمان الويسكي و إلى انهيارات نفسية. رغم وظيفته المستقرة في إحدى متاحف لندن، ففي صباح يوم أحد وعلى الطريقة الأريستقراطية، و لكي يدفن جوزيف يوسف بالمرة، أخذ حماما ساخنا. تناول أعز وجباته اشتهاء و فاكهة إجاص.)

يوقف السيد فحص حكيه و صوته في حشرجة بكاء محبوس. يتناول منديلا ورقيا يجفف به محجري عينيه. رانيا متصلبة في جلستها التي لم تغيّر من وضعها شيئا. كأنها في لحظة حداد تحتاج منها الصبر و الثبات الكاملين. لا تدري من أين أتتها تلك الطاقة في الصبر. وربما لم تفكّر في ذلك.

ـ تعلمين. كانت لحظات فرحنا كبيرة حينما نحصل نحن الاثنين على فاكهة إجاص نتقاسمها ونسكر برائحتها و طعمها اللذيذين.

(في لباس أسود أنيق. جلس على طاولة الأكل. استعمل سكينا وملعقة. وضع فوطة على عنقه. حذاؤه الأسود لامع في رجليه. الأبواب و النوافذ مقفلة، لكن الآثار دلت وساعدت على تفسير الطقس الذي اتبعه. وضع حبلا في السقف. تناول كأسا مملوءا بالويسكي. امتطى كرسيه الخشبي واقفا. وضع الحبل حول عنقه. دفع الكرسي. بعد فركلة و اختناق

سريعين مات يوسف ليعيش جوزيف في سجلات إحدى إدارات مدينة لندن: جوزيف كول. 36 سنة. انتحر بشقته يوم الأحد 7 أبريل سنة 1996 على الساعة العاشرة صباحا. نقطة مني أفرزها، بقيت أثرا على لباسه التحتي. ترك الدنيا ومعها ترك مذكراته الخاصة لينام بهدوء. مات موتة الكبار بعد اتخاذ القرار.)

انحنى رأس السيد فحص تأثرا. ارتمت رانيا في حضن أبيها باكية و مقبّلة له.

ـ بابا، حبيبي. لقد عانيت كثيرا و تألمت و لم نكن نعلم شيئا.

ـ حبيبتي. أنا الآن في كامل سلامتي الصحية و النفسية. الحمد لله. رويت لك كل هذا الآن بعد ان أصبحت كبيرة و قادرة على الفهم. لا تخجلي من نفسك و لا من انتمائك. أنت رانيا الخالدي، تربية وشخصية و كرامة و تأهيلا للحياة قبل أي شيء آخر. اعذريني الآن، سأذهب للاستحمام و أخذ دوش.

ـ أوكي، بابا حبيبي.

★★

26 شتنبر 2015. يوم سبت جميل. ثاني أيام عيد الأضحى. استيقظ فيه السيد فحص باكرا. اختار برنامجا خاصا به. ترك لرانيا وقتا تقضيه مع أمها و ضيفتيها. أخذ في سيارته كل الوثائق و الخرائط و المسودّات التي اشتغل عليها حول موضوع الشجرة السليمانية. سلّمها لطالب يشرف على رسالته لنيل دكتوراه الدولة. أرادها أمانة علمية يقوم بها شخص محايد عن أي تأثير شخصي و ذاتي. حيث لا تحيّز في الاستنتاجات و لا تكتم على الحقائق ما أمكن. لم يكن الأمر بهذه الدرجة من الخطورة، لكنه بدرجة كبيرة من الخصوصية الآن. خلّص نفسه من أرق المخبوء الذي كشفه لابنته رانيا. نام و ارتاح واستكان واطمأن قلبه. هاجسه هو توازن شخصية ابنته. أما هو فقد اكتسب شخصية صلبة من حديد مع تجارب الحياة وتحديات الوعي اللازم للعيش في تحرر من كل قيود أو عقد نفسية ماضية. يدرك الآن ويستنتج أهمية و قيمة التحرر بالنسبة لذات الإنسان. معنى أن يكون الإنسان متحررا و متخلّصا من كل تشدد أو تعثر في خطوات الحياة. التجرد من العالق من الصور الماضية ومن أدرانه. الطهارة العليا.

و كأن السيارة هي التي تستنتج هذه الأفكار. و كأن الطريق هي صفحات تنطبع عليها هذه الاستنتاجات. هذا التركيز الذي يأتيه و هو يقود السيارة يجعله داخلا في خشوع ذهني وتفكير عميق. كم من مرة كانت الطريق مسعفة لأفكاره و حلولا للإشكاليات التي تقف صعبة المنال في المعالجة في مختلف دراساته. كأن الطريق هي منعرجات الحياة التي نكتشف داخل دروبها حلول و مسارات جديدها، هي المعبر بين عالم الشهادة و عالم الغيب، بين الحقيقة والوهم...

ـ أوصيك خيرا يا بني بهذه الوثائق. لك أن تسافر داخلها بحريتك الشخصية و لكن مع الأمانة العلمية. أما أنا فسأسافر داخل دروب جديدة. تطور الهويات الجغرافية بالمغرب. موضوع يبدو غامضا. لكنه التحدي الذي سأطرقه لأرى كيف سيستقبل المجتمع الاستنتاجات الجديدة. لماذا يسكت على ماضيه الذي يعيش في حاضره و يصنع مستقبله؟ كيف يمكنه التخلّص من العقد الاجتماعية و الثقافية المرتبطة بامتدادات الهوية المتعددة للشخصية المغربية؟ ذلك مساري الجديد.

★★

بينما ينشد السيد فحص معادلة الدنيا، كانت شادية تنشد معادلة الآخرة. يتذكّر معها يوم كان يشارك في حراسة الامتحانات في سنوات من بدايات عمله. كيف كان يلتزم بالمراقبة النزيهة، و كيف كانت إحدى المرافقات في الحراسة تهرع لكرسي لكي تجلس عليه منذ بداية حصة الامتحان فتفتح كتابا بعنوان عريض بالأحمر (باب التوبة و الأدعية) وتغطس في ملكوته تاركةً إياه في جحيم مهمة الحراسة و نكد نفسيات الطلبة عليه. يضحك للمفارقة ، لكن دواخله تتمزق.

يتذكر عطر تلك السيدة، كيف كان قويا. يربط بينه و بين خيط الذاكرة الحالّ هنا و في الآن. ربما عندما فتح باب الدولاب باحثا عن لباس داخلي أبيض يجعله على جسده تحت القميص الكاشف، معلنا طهارة خاصة، قد تكون رائحة متسرّبة من عوالم زوجته شادية هي التي استحضرت. فجأة تطير الذاكرة و معها الذهن إلى الصورة التي رآها رسالة في هاتفه المحمول، شادية في لباس أبيض في ساحة المسجد النبوي بالمدينة المنورة. يعلم الآن لماذا تختلجه ابتسامة مرة في المقارنة و المفارقة بين لحظة من الزمن الماضي و بين لحظة في الزمن الحاضر. لم تُسَوّ الأمور بينهما بالشكل اللائق لمصالحة زوجية طبيعية.

لم يبحث عن طريقة للتجاوز، كما لم تبحث شادية عن طريقة للاعتذار .جعلتْ تصرفاتها متنقلة بين زهرات شجرتها الجينيالوجية الأسرية. فبمجرد عودة رانيا إلى باريس، عاد التباعد بين الزوجين. سادت برودة كبيرة علاقتهما. لا يتكلمان إلا في الضروري الذي يتقاسمانه عهدا مقدسا داخل مؤسسة الزواج. استمر السيد فحص في عيادته للطبيب النفسي بمدينة الدارالبيضاء. شجّعه السيد حدو الربيعي على الاستمرار. ذكّره بأن هذا البعيد

سيكون أفضل له. فعلاقتهما وصداقتهما القوية قد تغلّفها العاطفة و الشفقة في الكلام والألفاظ.

ـ تذكّر بأن الطبيب النفسي هو الآخر يلجأ إلى عيادة طبيب آخر لكي يعيد ترتيب التوازنات الشخصية و يصفيَ ما أمكن دواخله النفسية.

هكذا يزيد قناعة بالخطوات التي رسمها. يخلق عوالمه الجديدة التي لا يخدشها شيء من الماضي. فعلا، اختار علاقة جديدة متحررة من قيود الماضي. شرعنها داخل ثقافته. لم يعتبرها خيانة. هي وفاء لنفسه. حاسب نفسه بالموازاة: ماذا لو اختارت زوجته علاقة أخرى كما فعل؟ لم يبحث عن جواب. يشعر بأن الخيط الرفيع قد انقطع بينهما. يعيش لآنه و غده شخصية ثانية تتشرنق بدل الأولى. فبمجرد ما يلج مدينة الدار البيضاء قادما إليها من الرباط يفك أغلالا و يلتحف بعراء هواء البحر و زرقته المتاحة خيالا. يبتسم لساعته وهو يتذكر موعده في اللقاء مع بديعة الفلاحي.

شخصية واقعية و صريحة صراحة موقف السيد فحص الخالدي. طويلة في حدود قامته. جسد محافظ على رشاقته و مواكب لموضة اللباس الرفيع و العطور النادرة. حياة متحررة داخل مدينة متحررة. هي مدينة يخافها البعيد عنها، و يألفها المقيم في دواخلها و عوالمها. حينما يتداعبان بالكلام عبثا و سخرية من قدر اللقاء و قدر العلاقة تفاجئه:

ـ كازا يا كازا، اللي مشى ما جاء!

ـ الحمد لله، ما مشى في خلاء.

يضحكان ملء قسماتهما لحدود التصالخ و العناق و الغرق في قُبَل الشوق الجديد بينهما. يغرقان في تيه كازبلانكا. دخول الحمام ليس كخروجه فعلا. بين شادية و بديعة عشر سنوات كفارق في السن. وبين الجسدين فوارق كثيرة وكبيرة. إن كانت شادية تمتلك

العينين الساحرتين وخفة الجسد و رقته و نعومته، فإنها مع عامل السن افتقدت ما توفّر عند صغيراتها. حرب مع العمر لا يدرك خطورتها وسرّها أكثر من النساء. حتى إنهن لا يردن البوح بالسن والعمر. تعلّمْنَ أن الجواب هو دق لناقوس غد بتجاعيد وترهل جسد...

مقارنة السيد فحص بين الاثنتين بين سكر و صحو، و إن كان هذا السكر ليس بخمر ولا بنبيذ فعليين. هي مقارنة بين صحو و نوم، بين تنفس و غرق. و يتذكر ما يناسب. فيكون التذكر بغرابة الموقف وغرابة الاستنتاجات و نسبية صحتها كقناعة مريحة لضميره. فعلا. لا يمكن للمرء أن يتخلّص من وظيفة الضمير و الذي تبرمَجَ في سيرورة وصيرورة و تشكّل بقوالب جعلته جهازا ضروريا من أجل تحقيق التوازن بين ميكانيزمات و تفاعلات الدواخل مع تلك الخارجية في السلوك و التصريف.

يسائل نفسه: أيكون هذا الاختيار رجوعا للحظة و للقطة و جزء من حقيقة كان قد اختار فيها رفض الاختيار. يوم فكّر بالزواج من شادية، بقي شيء من حتى الغائبة. ها هي (حتى) تتشكّل بالقوة وبالتعويض.

لن يدّعي ملائكية و لا قداسة. واقعية عيش موضوعية و ملموسة. لن يبرر أكثر ما يقوم به. سيمضي قدما فيه و متوافقا مع الوضع، على الأقل خلال الفترة الراهنة. يحضره الحديث والحكاية التي جعلت الأعمال بالنيات. إنما يؤوّلها أو لنقل هي التي تؤوّله حتى تكون متوافقة مع وعي مناسب آني. بين اثنين. الأول كان مدمنا على شهوات الدنيا والثاني كان معتكفا بالعبادة من أجل الآخرة. في لحظة قدرية نوى الاثنان تبادل الأدوار دون قصد و لا اتفاق. أراد الأول أن ينتقل ليشارك الآخر عالمه، ماتا في لحظة الانتقال. ارتبطت النية بالعمل وفي المصير بعد الموت في هذا المآل. و طبعا هو مآل بين الجنة

والنار. لكن تأويل السيد فحص بعيد عن هول أو خوف أو مصير. تحويل لوظائفه وحفاظ على شكله و منطقه. اعتبر شادية و قد ذهبت بالمدنس بحثا عن المقدس. واعتبر نفسه... لا، رفض هذا الاستنتاج. لم يكن موافقا لما يريد. لم يكن ليعتبره مدنسا أبدا. حتى المعادلة رفضها. اختبر الذاتية في الحكم و لمس تأثيرها فعلا. هي باب ستدخل اللوم على هذه الذات. يشعر بجزء من المسؤولية والمساهمة في الخطأ و العطب. لكن، لا سبيل إلى معالجته في الحال و الآن.

أيكون شعورا بالندم على الخطوات التي قفز في دواخل عوالمها ورهن نفسه فيها؟ ربما هذا و ذاك. لكن، و للمرة الألف، لا سبيل للخروج بسهولة من كل هذه اللخبطة والتناقضات. بعض الأحيان هي تناقضات ضرورية من أجل ولادة جديدة. قانون جدلية يحكم المنطق و التطبيق و السلوك و الحياة و التاريخ. هذه مرافعته التي لا يعرف لها بداية و لا يفهم لها صيرورة. يحاول وعيها و خلق التوازن داخلها ما أمكن.

و شادية متنقلة بين أمكنة التاريخ، بين مكة و المدينة، أحد و فخ، عرفات و زمزم، الصفا و المروة، الكعبة و الغار...

أما رانيا، فهي منشغلة بمهام تكوينها و دراستها و عملها في باريس. خلقت علاقات جديدة، لكنها مرت من أزمة خطيرة يوم علمت بحقيقة مرض و موت خطيبها السابق. شرخت الأزمة أسبوعا من حياتها في شبه انهيار و بكاء و شعور بالندم. كالَمت عائلة الماجدي، واسَتْهم تعزية، بل واسوْها تعزيةً هم أكثر. أرادت المجيء إلى المغرب و ترك كل شيء هناك. أصرّت العائلتان على لا جدوى هذا القرار. القضاء والقدر حاضران دوما. ولا رادّ لقضاء الله و قدره. حلّق السيد فحص لمدة أسبوعين للديار الفرنسية. كانت مهمته صعبة ومفاجئة له هو الآخر. تعامل بصلابة التحدي لما وقع و هو يعلم أن تشظي

الواقع تجترح به الحياة و الذات. و لابد من مواجهته بصلابة و قوة و تجاهل لمكروهه الذي يوقعه على النفسية والشخصية و على الذات ككل.

رانيا التي كانت سنتها الجديدة 2015 سنة الضربات الموجعة والحقائق اللاهبة. رأت تصدّع علاقة والديها. رأت انكسارات هوية أبيها داخل ثقافة مجتمعها. رأت أخطبوط الموت و كيف يزحف بدون إنذار و لا شفقة لكي يلتهم الأخضر و يترك اليابس، لكي يسخر من وجودها. أجزاء منها قد ماتت مع هذه الصواعق. لم يعد استيقاظها صباحا ببراءة الطفلة التي تسكنها. تفتح عينيها على مرافعة الوجود الذي ألقمها في امتحان و أداء عقوبة و ثمن للواقع. و تستمر الحياة.

★★

رائحة التراب. هذه التي تعشقها بديعة الفلاحي منذ الصغر. بدأت كما أشياء كثيرة في الحياة بكرهها، لكنها انتهت بعشقها و البحث عنها، ولكن، ليس أي تراب.
ما تحكيه الخالة أم الغيث جل النهار بجانب عتبة مدخل المنزل للسيد فحص يذكره بما حلّله في مشوار حياته أو قرأه في صحفه و صحائفه، كانت تعاني من دوار في الرأس. ربما هي مرحلة المراهقة التي تتشرنق فيها الصبية لكي تصبح امرأة. ربما هي الطبيعة في هذا الكل. مشيئة الله بتقديره تعالى. في كل مرة تأخذها لمدار الشجرة، تجعلها تشتم ترابها. إذا ما تعذر ذلك تبلل التراب بالماء و تجعل أنف صغيرتها متعقبا للرائحة. تخلصت بديعة من الدوخة و الدوار. رقت طولا كقضيب خيزران. لاحت كفراشة بين البساتين. في خلال الحكي، يحضر المكر الساخرُ ذهنَ السيد فحص. يتساءل مع مشهد الذاكرة حول سرّ دفن النعامة لرأسها في التراب. يتحول إلى رؤية الجسدين ما دام لا يعرف مِنْ بديعة إلا هذا القوام المكتمل طولا و ثبات جذع و استدارة متنامية مع تزايد سنين العمر. يزيد في نبرة ضحكه و ابتسامته و هو يستمع لأم الغيث الجالسة فوق حنبل مفترشة بساط الأرض بوشمها العريض الذي يستدير على عنقها و يزخرف ذقنها متدرجا بخطوط ثلاثة. الأمر الذي أخضعه لاختبار عيني الخالة الفاحصتين. لن ينجو من استنتاجاتها و تخميناتها، سلاحها في القبض من بعيد على المنفلت في مدار المحيط..

...

اختارها وقفة ماجدة تطل على المحيط الأطلسي من جهات ثلاثة وممتدة في انبساطها فوق الهضبة غير بعيدة عن مصب نهر تانسيفت. تطل عليها غابة تنادي بتراقصها

الأخضر آفاق الأمواج الهادرة من بعيد. لكنها الرائحة التي مزجت الرذاذ الرطب و الهواء الفائح الجامع بين الماء و الشجر.

كانت رحلة نهاية الأسبوع إلى بلاد الشياظمة في مصب نهر تانسيفت، حيث عائلة بديعة. اسم على مسمى. فالشيظم يعني الطويل الجسم و الفتي من الناس و الخيل والإبل. يضحك لبحثه واستنتاجه: ههه.. بديعة شيظمة إذن.

بلاد جعلت إيقاع التاريخ هو إيقاع فلاحتها و نواميسها الخالدة. وحيث تتوزع الأصوات طول النهار و على امتداد الليل، تقسم اليوم إلى أدوار بين حركة و سكون، يكون صوت محرك السيارات والشاحنات و الحافلات ذلك النشاز الذي يحدث الضجيج ويقلق الذهن ويضيق من راحة بال الخلائق خلال النهار.

لم يفطن السيد فحص لهذه المقارنة إلا بعد أن تعدّت الإقامة اليومين وزيادة. ففي اليوم الثالث استيقظ على غير العادة مع بدايات الفجر وصوت ديك آت من بعيد لملم الأكوان و حرّك الساكنة.

جلس فوق صخرة ملتحفا بغطائه الذي حمله برنسا على كتفيه حين النهوض من الفراش. ضيف مُرحّبٌ به، لكنه يبيت في الصالون الطويل و العريض بمفرده. طقس الاحترام لأسرة بديعة الفلاحي يوجب ذلك. ففي مبرر الزيارة و الاستقبال، هو أستاذ جامعي يقوم ببحث تاريخي في المنطقة. و طبعا لن يبخل أفراد الأسرة في حكي مروياتهم التي تختلط فيها الأسطورة مع التاريخ مع خيال اللحظة.

تغذى خلال اليومين الأولين بجميع الحكايات التي أضافها إلى ما يعرفه أكاديميا عن المنطقة. منطقة عبدة و الشياظمة جنوبَها، عمق التاريخ المغربي. يراها السيد فحص عنق الزجاجة الذي لابد مِن أن يمر عبر قناته كل مجرى في أي مسرى. تاريخ قديم قبل الإسلام،

وحركات احتلال و قلاع و أبراج و قصبات و مصب نهر يأتي بزبد الحكايات من جوف الأطلس الكبير و أغمات و مراكش... حتى الدراما سجلت فنيا وسينمائيا حكاية خربوشة التي أذلت القايد عيسى بن عمر، رغم الجرح المميت الذي تذوقته في فؤادها و فقدان أهلها... حتى الساكنة، و الخالة أم الغيث لا يعدمون من إنشاد للعيطة العبدية صوت الروح، روح خربوشة، و المخلّدة لكل التاريخ. بالأمس سمع همهمات أم الغيث تردد بلحن شجي و هي تغزل صوفها و تنفشه قبل برده بالمغزل، تغني مع الأصيل في انتظار الغروب و جلسة الشاي، متفيئة بظلها المعتاد في بوصلة مع قرص الشمس العابر بين الآفاق:

ابغيت السيبة

ما ابغيت احكام

من دابا ثمانية أيام

على السي عيسى الثمري.

....

يا بن عمر

يا اللي كّالوا مطوّع الحية

و الظالم تخلصوا النية

و حق من دّاني ليك

حتى يجيبك ليَ

تذوق و تعرف حتى انت حرُّ الكِية

.....

خربوشة نخوة و عزّة
تشفي الجراح وقت الحزّة
...
توقفها بعد حين بديعة، و تدعوها:
ـ يا ام الغيث، دعي الحزن و الأسى... لا رجعة للذين مضوا و ماتوا، راح معهم الخير والضر... أسمعيني الكلام الزين، فرحة بلادي.
توقف أم الغيث الحركة في لباسها الأصفر المفضل. تقلّب الشاي بين الكؤوس في طقس متراقص بين الملء و الإفراغ يكون معه بخار الشاي متصاعدا يصنع سماء برائحة النعناع البلدي.
ـ على الحال ساهل... يلا مشاوا الاحباب و راهم مشاوا... إييه. شكون يردهم... يا ربي...
تُناوِلها كأس الشاي برزته البيضاء و تدعوها لمناداة الأستاذ لشرب الشاي.
ـ اصفرّت الشمس و هذه الهضبة تحجبها قبل مغيبها. كانت الايام مغنى و رقص و فرح. أمك الله يرحمها يعجبها الكلام الزين.
ـ مثل ماذا يا أم الغيث؟
ـ هييه... فينك آ الايام.
وا الغزيل طاحت مريضة
لوليد ولاّ معشوق
للسوق تنوض بكري تمشي
تجيب الفؤاد مع الغرنوك

و الكبدة حتى هي

تنتهي من العيطة و لا ترفع عينيها للجالسين بجانبها. ترشف من كأسها و تستسمح في الدخول إلى غرفتها، فالليل سيكون باردا. هما كذلك اتخذا طريقا مجاورا في خطوات متطلعة للون الغروب الممتد وراء تلات هذه الهضبة الصغيرة. البحر ليس ببعيد، يكفي تجاوز هذه الكدية لكي نراه بشكل جيد.

كل هذا الذي وقع بالأمس لم يستعن به السيد فحص كرواية أو دراسة. استعان في هذا الصباح الباكر بحواسه و جعلها مرافقة له ومعانقة للحظة و مرافعة للوجود. ترك لغة الأسطورة الآتية من اليونان و الملتصقة بلغة العلم و البحث. نظر إلى التراب فلم يرِدْه أن يستحضر جمع الحجر مع دم الآلهة في تسمية *petrichor*• . احتاج لطهارة لغوية في هذا التواجد و هذا الصبح الجديد و السديمي في ألوانه.

رأى بأم عينيه كيف تتنفس الأرض و كيف تستطيع نباتاتها إخراج إفرازات زيتية من أجل تأخير البذور في الانبلاج و النمو المبكّر قبل وصول الأمطار. في شهر فبراير هذا، و الجو بارد بالليل و الصباح، والسماء غابت عنها غيوم الفصل الواعدة و المنسوبة إليه تعريفا وهوية، رأى كيف تتناغم قطرات الندى في انزلاقها الراقص من فوق الأشجار القليلة الموزعة هنا وهناك. متى كانت أول نوتة لهذا الطل في الإيقاع؟ كيف أشعل

•- أصل الكلمة من الإغريقية، وهو مركب من كلمتين، حيث بيتروس petros تعني الحجرة، و إيكور ichor تعني دم الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية

المشهد حرارة البخار الخفيف المتصاعد من صدر هذه الأرض المهتزة بسمفونية الاستيقاظ؟ هناك عقل مدبر لكل هذا الإبداع.. تأتيه ذكرى لن ينساها لبحث إجازة انجزه طالب جامعي في تخصص الجغرافية الطبيعية و أصرّ على الاستشهاد بآيات قرآنية في جل منجزه، و كيف جعل تقديم بحثه بالآية القرآنية (و ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت و ربَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج).

ـ الآن يمكنني أن أقبل استشهادك في وصف الطبيعة.

اغتسلت حواسه بكل هذا الاكتشاف منتظرة انتفاضة الجسد لينطلق في حركة. شمّ قائد الحراسة للمنزل و الكلب(الروضي) المألوف والوفي لأم الغيث في حنوها و نهرها في آن، والمألوف كذلك عند أسرة بديعة الفلاحي، قدميْ السيد فحص. ابتسم هذا الأخير حابسا الأدرينالين و كل ارتعاشة أو تململ لمسام. يعلم أي اختبار هو فيه. حمد الله على عدم وجود إفرازات عملية فراش معينة و إلا كان (الروضي) أول الكاشفين والفاضحين لأمره.

حرك ذيله اطمئنانا و افترش رؤوس أصابع قدميْ السيد فحص لكي يغمض عينيه و يترك لحاسة الشم و السمع وظيفة الحراسة. بل ربما استعان بهذا الصاحي في التناوب معه عليها. من يدري.

ـ صباح النور آ الروضي.

أوقف الروضي أذنيه منتصبتين تنبيها و إجابة، و ترك للصوت حرية الكلام... اضطر معه السيد فحص لمتابعة الاحتضان لخمس دقائق زيادة لم يخرجهما منه سوى صوت حوافر بعيدة وثغاء غنم و نباح كلاب مألوفة لدى الروضي، هذا الذي استنفر في جلسة

منبطحة وهرع بعدها بسيقانه الأربعة جاريا وراء عابري أفق الهضبة غير البعيد... هناك: وادي تانسيفت طبعا.

ترك السيد فحص الغطاء الذي كان يلتحف به فوق عتبة باب المنزل مطويا. أحكم إغلاق أزرار صدريته و سلسلة بذلته الرياضية الفوقية الزرقاء. وأكب هو الآخر صدى القطيع وأصواته و ذبذباته في اتجاه ضفة النهر و منحدرات الوادي... منذ مدة لم يزُر الشمس في مشرقها. التقيا هذا الصباح في منتصف الطريق إلى الوادي. يكون قد سجّل مواعدتها في الغروب و الشروق، و تكون هي قد تركت له فرصة اشتهائها و مغازلة قرصها قبل أن تنشر بهاء شعاعها و لهيب خيوطها. فلحظات الرومانسية قليلة في مهمتها طبعا.

لقد كان الجسد في حاجة إلى هذا الانتعاش و الاستحمام و الدفء. لكن ما وراء النهر أدهشه أكثر. أرض ممتدة بين تلتين، تصورهما في هذا الصباح الباكر نهدين سيستلقي بينهما على ظهره فوق عشب أخضر يترجى ان يكون دافئا. لكنه فصل شتاء. استيقظ من الحلْم وأزاح شاشة الخيال لكي تلتقط الحواس و الرؤية مجرى النهر الحامل للحكايات، و هو المفطوم بحليب الأنهار و المفطور بعشقها، زاده تدريس التاريخ شحن عبوره بالمرويات وعجائب الزمان و المكان.

سأشتري هذه الأرض إذا كان ذلك ممكنا. فعلا إن الهوية جغرافيا ممتدة في الجسد وفوق هذه الأرض. سأسميها (يسة) تيمنا بروح التي يريد التاريخ نكرانها. سيكون التاريخ جغرافيا في زمن غابات الأشجار الموغلة بقانونها.